سلسلة الكتاب المسيحي ٧

حياتي

الاسقف
حسن دهقاني تفتي

حياتي

بقلم :

الأسقف حسن دهقاني تفتي

ترجمة :

الاستاذ ابرهيم مطر

صدر عن
مكتبة المشعل الانجيلية في بيروت
بالاشتراك مع
المجمع المسيحي للشرق الأدنى

تقديم كتاب

صدر من «سلسلة الكتاب المسيحي» باللغة الانكليزية حتى هذا التاريخ ما يقرب من الاربعين جزءاً، ترجم منها الى العربية عشرون. ويشرف على اعداد هذه السلسلة الاسقف ستيفن نيل تعاونه طائفة من كبار المفكرين ورجال الدين في مختلف انحاء العالم. وقد أُعدّت اجزاء هذه السلسلة لتكون قابلة للترجمة الى لغات عديدة. وفعلا فقد ترجمت اجزاؤها الى الصينية واليابانية والهندية والعربية وغيرها من اللغات الشرقية والغربية.

ويطيب لمكتبة المشعل الانجيلية في بيروت التابعة للسينودس الانجيلي الوطني بالاشتراك مع المجمع المسيحي للشرق الادنى ان تقدم للقراء في العالم العربي الجزء الحادي والعشرين من هذه السلسلة. وقد صدر هذا الكتاب باللغة الانكليزية تحت رقم ٢٨ وبعنوان: « Design of my World ». ومؤلفه هو الاسقف حسن دهقاني من ايران. وقد نقله الى العربية الاستاذ ابرهيم مطر، تحت عنوان « حياتي ». وهذا اول كتاب يصدر من «سلسلة الكتاب المسيحي» بطريقة فنية وباخراج جديد طريف.

ويتناول كتاب « حياتي » سيرة حياة المؤلف. والاسقف حسن دهقاني اهتدى الى المسيحية وهو صغير، ثم نما في الايمان

المسيحي حتى اصبح مطراناً للكنيسة الاسقفية في ايران. وقد أودع المؤلف كتاب حياتي لمحاً عن اهل بيته، وطريقة معرفته للمسيح، واختباراته الروحية، واهتدائه للدين الجديد. وضمن الفصل الرابع بعض التفاسير للعقائد المسيحية، منبّراً في كل ما كتب على ان الله اوجد له هذا المخطط من الحياة.

ولا شك في ان سلسلة « الكتاب المسيحي » تؤلف مكتبة مفيدة وكنزاً ثميناً لمن يقتنيها. وهـذا الجزء هو فتح جديد في هذه السلسلة. وصلاتنا الى الله ان تكون اجزاء هـذه السلسلة مصدر بركة للكثيرين من المسيحيين وغير المسيحيين، وان تجد لها مكانة في خزانة كتب الاخوة الغيورين. ومنيتنا ان يكون هذا الاختبار الذي حصل عليه هذا الاسقف الايراني هو اختبـار كل من يروم الاهتداء الى من قال: « انا هو الطريق والحق والحياة. »

واننـا لنرجو صادقين ان يكون هذا الكتاب وبقية اجـزاء هذه السلسلة مشكاة تحل للناس بعض مشكلاتهم لا سيما في هـذا العصر المتأزم. وما اعذب رسالتها ان كانت تنير لنا قتام الحياة، وتهدي من حارت افكارهم من ابناء شرقنـا العزيز الى مواطن الحق ومراقي السماء.

المترجم

توطئة

تشتهر مدينة اصفهان الفارسية في تاريخ الادب بالشعر ، وفي التاريخ العمراني كموطن للقباب المذهشة وللمساكن البديعة التي هي مثار اعجاب الكثيرين من السياح والمسافرين . والمعروف ان حاكم البلاد الشاه عباس كان صاحب هذه الامجاد العظيمة. فهو الذي اقام في منتصف المدينة ساحة واسعة تعرف «بميدان الشاه». وقد دعيت هذه الساحة في سجلات التاريخ الفارسية « بنقش جهان » والتي ترجمتها « مخطط عالمي ».

ويحاول هذا الكتاب التحدث عن قصة اخرى لاصفهان. هي قصة حدثت لطالب مدرسة ، فينبئنا صاحبها عند سردها كيف انه وجد لنفسه عن طريق الله مخطط لعالمه. ومثل هذه القصة لن تجلب السياح الى اصفهان، بيد انها بضاعة خيّرة جديرة بالتصدير الى الخارج .

ويتناول كتاب «حياتي» قصة ذات مناح اربعة . لان ما اختبرته يقول الكاتب جاءني في ظروف اربعة متعاقبة . وفي محاولتي سرد حوادث هذه القصة ساقدم للاخرين نموذجا عن الحياة والسلام التي اختبرتها عن طريق ايماني بالمسيح .

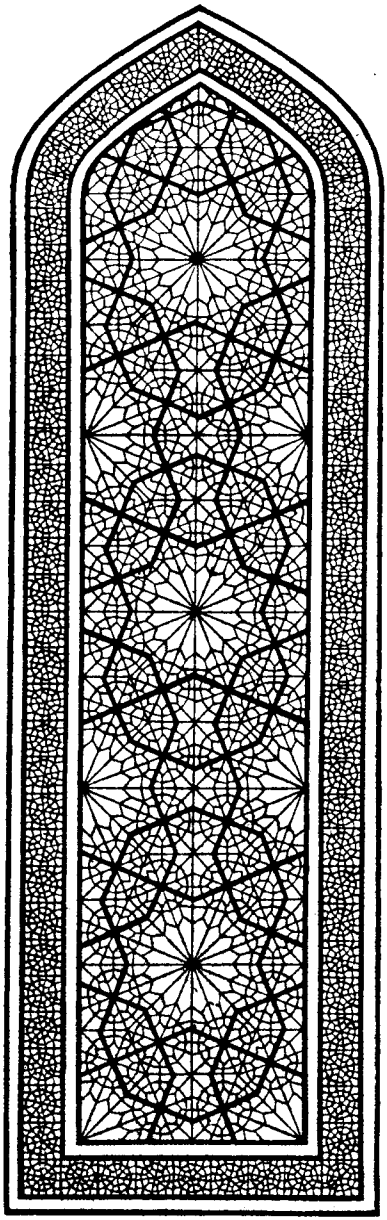

الفصل الاول

موطن وميراث

من يزد الى اصفهان

لا بد للسياح والمسافرين والقادمين الى بلاد فارس من ان يحظوا بزيارة لعاصمة البلاد طهران، او ان يمرّوا باصفهان وشيراز. وتشتهر هذه المدن بتاريخها المجيد، وبجمالها الساحر، وبالمكانة الممتازة التي تشغلها كمراكز للصناعة اليدوية، والمادة الفنية، والتقدم العصري. لكن ايام طفولتي اختصت بقرية بسيطة تعرف – بتافت . فهناك تفتح حبي الاول لبلادي. وتافت هذه قرية متواضعة تقع في ايران الوسطى والى الجنوب الغربي من مدينة يزد .

وتتخذ يزد اسمها من اسم قديم له عرف « با زيد » . ويزد مدينة هادئة، سكانها قانعون ومقتصدون ومجتهدون. وهم يقضون ساعاتهم الطويلة بالقرب من انوالهم ليحيكوا القطن او لينسجوا الحرير. انهم يزرعون الارض بدون ري، وفي جو من الجفاف. ولكن متى توفر الماء لهم غدت تلك التربه جدّ خصيبة .

وتقع تافت – قريتي وراء صحراء يزد، وعند حافة سلسلة جبال عظيمة. وتبرز في تلك السلسلة من الجبال قمتان شامختان هما : جبل الاسد والبيت الابيض. وهذه القرية مبنية على ضفتي حوض مجرى نهر جاف، تحيط به الحجارة المتناثرة، وتغمره المياه في فصل الربيع عندما تذوب الثلوج من اعالي الجبل .

ولدى عودة الربيع من كل عام يغشّي الجمال معالم القرية. فترى الجنائن تعبق بالروائح الذكية وتمتلىء بالزهر الجميل. وتنعكس الشمس باشعتها الذهبية على تلك الحدائق فتكسبها جمالا فوق جمال. ويبدو الزهر الملوّن كاسيا تلك التلة الخضراء من الورق التي تغمر الاشجار.

امـــا بيوت القرية فبسيطة. فهي مبنية من الطين او الطوب او اللبن. والشوارع ضيقة ومملوءة بالغبار. وتجري تحت الشوارع اقنية من الماء حفرت لمصلحة القرية، واستجابة لمطاليب السكان.

وكان بيتنا مؤلفا من غرفتين ومطبخ. وما زلت اذكر والدتي وهي تعتني بهذا البيت المتواضع. وقد استخدمت احدى الغرفتين كصيدلية. وكثيرا ما كان الناس يقصدونها من اجل الحصول على المساعدة الطبيّة، ذلك لانه كان لها بعض المعرفة بفن التمريض الحديث. والمعروف انه لم يكـــن في «تافت» اي مستشفى او عيادة، من اجل ذلك فمن المستغرب ان تكون والدتي ملمة ببعض اصول فن التمريض.

لكن لنـــذكر ان المرسلين المسيحيين كانوا قد بنوا في يزد اول مستشفى. وكان ذلك قبل الحرب العالمية الاولى بقليل. وانتشرت

سمعة هذا المستشفي في طول البلاد وعرضها . وكان لي جدّة تعرف القراءة وتجيد ترتيل القرآن ، وقد دعـــاها الناس « الملا زهرة » واصيبت في كبرها بنكسة في عينيها مما جعلها تحتاج الى المساعدة والمعالجة ـ فتوجهت مع ابنتيها سكينة ـ وهي امي ـ وربابة خالتي الى ذلك المستشفى بيزد للمعالجة . وشكلت تلك المخاطرة اساسا لمخطط حياتي في المستقبل .

واستقبل القائمون على مستشفى الارســالية المسيحية بيزد جدتي وابنتيها بترحاب. فاهتموا بمعالجة الام في حين ان الابنتين ظلتا هناك تعتنيــان بها. وكانت هذه فرصة سانحة للابنتين ان تتعلما فن التمريض في ذلك المستشفى المسيحي فيما بعد .

ومرت السنون وآلاف المرضى يعالجون في ذلك المستشفى. وكل يوم كان يكــرز ببشارة المحبـــة التي كانت تسمع من المبشرين والقسوس ،وعن طريق اعمال الاطباء والاخوات ، بالاضافة الى تلك الاعمال التي تجسّم المحبة المسيحية وتجعلها تتكلم عنها بالافعال .

وكان العمـــل المسيحي في يزد عند ذاك عملا عظيما كما هو الآن. ويحتاج هذا العمل الى هبتين خاصتين من عطايا الروح القدس الا وهي : « الصبر والتواضع ». ولحسن الحظ فان هولاء المرسلين

الذين قدموا الى هذا الجزء من العالم النائي كانوا حائزين على هـذه العطايا السماوية .

واستطاع هولاء المرسلون عن طريق خدمتهم المضحيّة وتعاليمهم الامينة ان يكتسبوا اشخاصاً للمسيح. وقد جـاء البعض منهم مدفوعاً بغريزة حبّ الاستطلاع ، كما ان فريقا آخر جاء للخدمة عن اخلاص، ومدفوعـــا بدعوة من السماء . ولا بد ان يكون هناك فريق ثالث كانت له اغراض متشابكة او مقاصد متنوعة. وكان من الطبيعي ان يميل أهـل فارس للتصوف. ولا يمكن لشعب تألم كثيراً في تاريخ بلاده من ان لا يبالي بصليب المسيح عندما يراه ماثلا في حياة اولئك العاملين المضحين .

وهنا نجد المحك، فهل يرى اولئك الناس صليب المسيح ما دامت الشمس محجوبة وراء غيوم كثيفة !؟ فهناك روح الشك والكبرياء والتباهي والسيطرة، والثأر والانتقام والدناءة، وحيـــاة الذل والخنوع ! وقد حاول المرسلون ان يروا الناس محبة المسيح ومعنى الصليب. انهم حاولوا اظهار ذلك النور، وفي بعض الاحيان كان هـذا النور يشرق وسط الغيوم المتكاثفة، فيفتح بطريقه العجائبية قلباً متواضعاً ونفساً حساسة .

ومن تلك القلوب التي مسها نور المسيح قلب والدتي سكينة. ولم يقف شيء من الكراهيـــة والشك او عدم الفهم في طريق تلك الروح الحساسة والقلب الفياض المحب. ولم تكن الغيوم المتجمعة لتحول دونهـــا ودون رؤية محبة الله المعلنة عن طريق المسيح. وما عتمت هذه الوالدة ان قبلت المسيح وتعمدت باسمه. وتعلمت ايضاً القراءة والكتابة وغدت تطالع كلمة الله دائماً.

ولا بد وان يكون قد نالها شيء من الاضطهاد عن يد اقاربها. اذ لا مفر من مثل هذا. بيد انها وجدت في عداد تلك الجمـــاعة المسيحية المؤمنة شركة حارة. ولشد ما شعرت وهي تعيش معهم انها في امان وسلام. كما انها شعرت بسعـــادة فائقة، وهي تخدم سيدها واخواتها من بني الانســـان عن طريق عملها في ذلـك المستشفى المسيحي.

ونشبت في عام ١٩١٤ الحرب بين المانيا وبريطانيا. وكانت تركيا حليفة المانيا، وفي الوقت ذاته هي جارة ايران. فتعكر الجو في ايران وترك المرسلون الانكليز البلاد. وعندما اشتدت الحرب في اوروبا كان لا بد لهذا المستشفى في بلدة يزد من ان يغلق ابوابه.

ولم تمض بضعة اسابيع الا والمستشفيان اللذان كانا يقومان بالخدمة

في يزد يقفلان ابوابهما. وتفككت اوصال الكنيسة المحلية الفتية على اثر مغادرة المرسلين للبلاد. وهكذا اضطرت الملا زهرة ان تعود مع ابنتيها سكينة وربابة الى تافت. ومما لا ريب فيه ان تكون هاتان السيدتان قد حصلتا على اختبارات كثيرة من جراء احتكاكها بالمرسلين وبغيرهم من موظفي المستشفى.

ورغم قلة معرفة الفتاتين بأمور التمريض فقد بدأتا تمارسان هذه المهنة في قريتهما تافت، وفي القرى المجاورة. والعادة ان البنات لا يبقين في القرى بلا زواج طويلاً. ولم يكن الزواج يشكل مشكلة لربابة، ولكن سكينة رأت فيه مشكلتها، اذ انها كانت الفتاة المسيحية الوحيدة في تافت. والمشكلة بمن تتزوج يا ترى ؟!

ونظراً لاعتناق سكينة الدين المسيحي فقد اضطرت ان تنفصل عن جماعتها، وتبتعد عن وسطها الثقافي وبيئتها الاجتماعية. ولكن الانفصال الاكبر تمّ في اعمق دائرة من دوائر الحياة، الا وهو الدين. بيد انها رغم كل هذه الفرقة ظلت راضية وسعيدة، اذ اعتبرت نفسها عضواً في طائفة صغيرة حية هي الكنيسة المسيحية. وتحتم عليها في بعض الاحيان ان تماشي جماعتها في بعض اوضاعهم، لا سيما عندما كانت مضطرة لان تعود الى محيطها القديم. ولا يمكن

الجزم في هذا الوضع المائع، كم استطاعت هذه السيدة الاحتفاظ بعقيدتها المسيحية، وبالمبادىء الجديدة التي اعتنقتها .

واضطرت سكينة في النهاية ان تتزوج من قريب لهـا اسمه محمود وكان هذا يسكن بلدة تافت . وكان محمود شاباً اميّاً ولكنه كان ذكياً. اهتم بامور الدين، واكتسب احترام ومحبة عارفيه وابناء قريته ، وما عتم ان رزقهما الله ولداً سميـاه يحيى . وعقبه ثان سمياه حسن . وبعد ذاك أُضيف الى عداد هذه العائلة صبي آخر تلاه مجيء بنت .

والقت الحرب العالمية الاولى اوزارها عام ١٩١٨ – فعاد المرسلون بعد نهاية الحرب الى يزد. وعملوا على اعـــادة فتح المستشفى، واحياء الخدمات الدينية في الكنيسة المحلية. وعمد المرسلون عند ذاك الى التجول للكرازة ولنشر كلمة الله بين الناس. واننا لنرى احد المرسلات المعروفة باسم « المس كنغدون » تركب حماراً، وتزور قرية بعد الاخرى بجوار يزد بقصد نشر الدعوة المسيحية . واننا لنقرأ في مذكراتها امثال هذه الحوادث التي دونتها في يومياتها.

خليل اباد من ٦ – ١٠ كانون الاول عام ١٩٢١ . «سرت اربعة فراسخ اي قرابة ١٢ ميلاً . . . عقدت اجتماعاً حضره ٣–٤ . . .

وتكلمت عن برثيلوماوس الاعمى . . . ، جرى حديث في ساحة الدار مع جماعة صغيرة . . . ثم رتلنا بعض التراتيـــل . . . توجهّت الى حسيني وهنـاك عقدت اجتماعـــاً صغيراً. وجرى حديث مع رجل مسن كان قد زار بومباي، وابتاع مني كتاباً. ثم تكلمت لهم عن مثل الخروف الضـــال . وسألني الرجل العجوز : اين تذهب بعد الموت ؟ . »

تافت في ٢٥ ايار . «جاءت سكينة ونزانين حوالي الساعة الثالثة والنصف، فشربنا الشاي معاً . . . وذهبت لزيارة بيتهما. ثم عـــادتا معي لحضور الاجـتماع . . . ولم يحضر ذلك الاجتماع اكثر من ٢٠ شخصاً . »

و في ٢٩ ايار . « جاءت سكينة ونزانين للمطالعة . . . وبعد ذاك ذهبت الى بيت سكينة، وهناك عقدت اجتماعاً لطيفاً حضره ٢٥ شخصاً، وكان الاصغاء الى كلمة الله مشجعاً . »

* * * *

ويبدو ان كلمات الانجيل كان لها صدى في ذاكرتي منذ نعومة أظفاري. فمنذ ان كنت في السنة الاولى من حياتي أخذت مثل

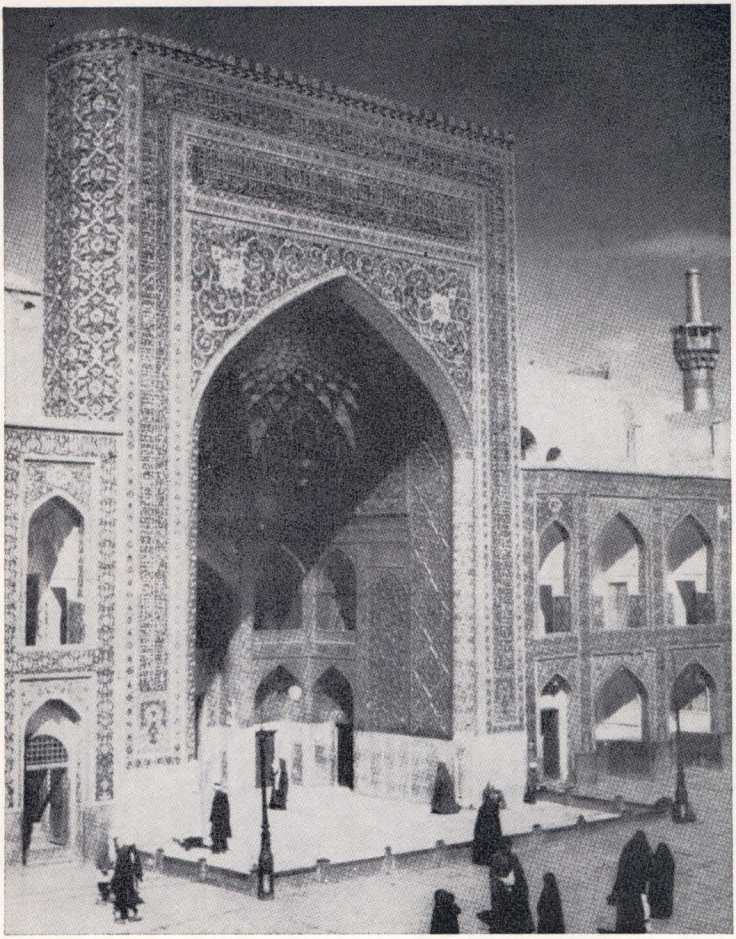

هذه الامور تجري حولي . فانني ولدت عام ١٩٢٠ . ولم تكن سكينة الوارد ذكرها في مذكرات هذه المرسلة سوى والدتي ..

واني احتفظ ببعض الذكريات من زمن طفولتي. فاني اذكر وانا في الرابعة من عمري ان جماعات من المرضى كانوا يتوافدون الى بيتنا. وكانت امي تحتفظ بكميات من الادوية في احدى الغرف التي كانت شبه صيدلية. وقصدها اهل القرية للاستشارة الطبية ولحل مشكلاتهم. فكانت تشغل مكانه رئيسة عندهم. وكانت بدورها على استعداد لان تعمل بهدوء وبلطف كل ما تستطيع عمله لهم ..

واعتاد والدي ان يضيء مصباحه الزيتي كل عشية بعناية فائقة ، وقد تعوّدنا ان نهتف بعد ان نفرغ من اضاءته بكلمة « سلام » وهكذا تعودنا ان نحيي النور كما نحيي الناس. وربما كان هذا تقليداً اخذناه عن عادة قديمة. وعلى الاثر كنا نجلس حول المصباح المضيء لنستمع الى قصص يرويها لنا الكبار.

وكانت معظم القصص التي تحكى عند ذاك دينيّة ، يشترك فيها المسيحيون والمسلمون. واذكر ان اخي يحيى روى لنا مرة قصة مولد سميّه يوحنا المعمدان. وقد رواها كما هي مدونة في انجيل لوقا .

وانتهت ايام سعادتي في السنة الخامسة، اذ حدث ليلة كنا ننام فيها جميعاً على السطح ، وتحت القبة الزرقاء ان سمعنا صراخاً وعويلاً من الدار. وكانت امي تنام على سرير هناك. ونهض والدي وهو مضطرب ومنزعج. وحاولت ان الحقه الى اسفل لكنه قال لي : الافضل ان تعود الى مكانك وتنام. وفي اليوم التالي سألت عن امي فقيل لي انها ذهبت الى الابدية حيث لا عودة لها، وانني لن اراها على هذه الارض. وقد عرفت فيما بعد انها توفيت بسبب مرض السل .

ومما لا ريب فيه ان خسارة الام هي اكبر خسارة ، واسوأ ما يصيب ولد في مثل عمري. ويكون المصاب اشد فداحة عند ما تحصل في مجتمع بدائيّ وضمن جماعة فقيرة، ولا سيما وان سعادة الطفولة المبكرة ورفاهية الولد الصغير تعتمد في مثل هذه الحالة على شخص الام. وهكذا شكلّت وفاة والدتي مأساة كبيرة لي. بيد ان الله استخدم هذا الشر للخير، كما يتبين من سياق الحوادث فيما بعد .

وسرعان ما غدت حياتها البيتية التي كانت مركّزة حول امنا جدّ مضطربة. فان معرفتها لاصول التمريض والمامها بالطب ، ولو انه كان على نطاق محدود ، كان يشكل مورداً لدخل العائلة.

وقدعمل هذا المورد على ضمان راحة العائلة ، واستمرار رفاهيتها. انما بوفاة والدتي توقف هذا المورد مما حمل والدي على ان يسعى اكثر ويعمل بجد اوفر . وبالرغم من الجهود الجبارة التي بذلها لزيادة دخل العائلة ، فقد بقينا دائماً نشكو العوز والحاجة .

وكان من جراء ضيق ذات اليد ان توقف اخي يحيى عن الذهاب الى المدرسة. فاضطر ان يشتغل ليضمن معيشته. وتوفيت اختنا الصغيرة ،وهي طفلة ، من قلّة العناية. ولم يساعدني صغر سني على العمل عند ذاك ، كما انني لم اكن كأختي الصغيرة أتعرّض للموت اذا أهملت عنايتي . وهكذا فقد كان علي ان اعيش كما تعيش آلاف الادغال البرية التي تنمو في الصحراء المحيطة ببلدة تافت .

وكانت بلاد ايران منذ قديم الزمان مجزّأة الى اقضية ومقاطعات ، شبه ما نجده في انكلترا في نظام الابرشيات . وكان لكل ابرشية جامعها والامام المقيم عليه . وقامت عادة امام الجامع ساحة كبيرة تتسع للاجتماعات والمواكب الدينية . وتمركزت معظم الحياة الاجتماعيه في الابرشية حول الدين ، وكان الجامع او الساحة مركز ذلك النشاط .

وصدف ان الحي الذي نسكنه كان من الاحياء النشيطة العاملة

وقد ترك الجامع ذكريات حية في نفسي . وبالرغم من ان والدي كان أمياً الا انه لحسن صوته ولحدّة ذاكرته ، ولانصرافه لامور الدين جعله يشترك في الوان النشاط الديني لذلك الحي . وما اكثر ما اصطحبني معه الى تلك الاجتماعات . وما زلت اذكر الاحتفال بموت الحسين بن علي في العاشر من شهر محرم .

ويميل الايرانيون بطبيعتهم الى الشعر والتمثيل . ولا يمكن لهذه النزعات الفنية ان تظل محبوسة او مكبوتة . ولما لم تجد لها متنفساً في الروايات العادية فإن الايرانيين نفسّوا عن هذه الرغبات الحبيسة في المواضيع الدينية التي انتزعوها من تاريخهم القومي والديني . ولهذا تجدهم ينزعون الى تأليف الروايات الدينية العاطفية مثل تلك التي اعتادوا ان يمثلوها في ذكرى مقتل الحسن والحسين .

والمعروف انه كان لعلي ولدان هما : الحسن والحسين . ويميل الايرانيون الى بيت علي لان ام الحسين كانت ابنة ملك يزدغرد آخر ملك فارس . وبعد مقتل الحسن لم يرد الحسين ان يتنازل عن الخلافة ، من اجل هذا هو تعرّض للمقاومة والقتال واسفرت النتيجة عن مصرعه في العاشر من شهر محرم . ويعتقد الشيعة

الذين هم اتباع علي ان الحسين مات في سبيل الحق ، ولذلك فاستشهاده له قيمة عندهم تشبه لدرجة ما ، القيمة التي عند المسيحيين لصليب المسيح . ويحيي الشيعيون ذكرى استشهاد الحسين باحتفالات العاشر من شهر محرم . وفي هذا اليوم تمثّل بعض الروايات العاطفية .

وكان سكان بلدتي يشتركون في مواكب العاشر من محرّم اما بالتمثيل او بالتفرج عليها . واذكر انني بعد موت امي وبالرغم من صغر سني فقد أُشركت في احد هذه المواكب . فقد اركبوني على جمل مع ولد آخر . ومثلت دور الحسن بن علي . وفرض عليّ ان ابكي واطلب الماء من الناس . وكان الرجل المرافق لنا فظاً يوالي ضربنا ويرفض اعطاء الماء لنا . وقد قمت بتمثيل هذا الدور تمثيلاً طبيعياً لانني كنت خائفاً وعطشاناً عطشاً حقيقياً .

واخيراً اشفق علي ذلك الرجل الذي كان منوطاً به ان يضربنا، فابعدني عن دائرة التمثيل ، واجلسني قرب منبر كبير أُقيم هناك . وبقيت في ذلك المكان حتى انتهى المشهد كله . فجاء والدي وارجعني الى البيت . وفي الاوقات التي لم يكن هناك ثمة نشاطات دينية للاشتراك فيها ، كنت تراني العب في الساحة

مع باقي الاولاد رفاقي .

وكنت في معظم الايام اتوجه الى حانوت عمي الحداد لاساعده على النفخ في الكور . وكان يصنع بعض الادوات الحديدية للاستعمال العام . وكنت اذهب مرات اخرى الى بستان اقاربي لاساعدهم في تقنيب الاشجار ، او تنظيف تربته من الاعشاب او بملاحظة الدواب ، ليتسنى للكبار قطف الاثمار عن الشجر .

واذكر مرة انني كنت اقتاد قطيعاً من الخراف الى بركة كبيرة لتستقي . وهناك تذكرت كلمات المزمور الثالث والعشرين ، فارتبطت هذه الحادثة بتذكري لهذه الكلمات الموحية التي هي مطلع ذلك المزمور : **« الرب راعي فلا يعوزني شيء . »**

وكثيراً ما تجد ان حقيقة روحية كتابية تنطبق كل الانطباق على حالة خاصة . وقد وجدت ان ما جاء في نبوة عاموس ينطبق علي تماماً . وقال عاموس لامصيا : « لست نبياً ولا ابن نبي بل انا راع وجاني جميز » . واخذني الرب من وراء الضان وقال لي : « اذهب تنبأ لشعبي » . ولمست بأن الله أخذني من رعاية المواشي ومن الاهتمام بالمزروعات وقال لي: «اذهب وتنبأ لشعك» .

ولم يتم هذا دفعة واحدة ، بل استغرقت هذه العملية وقتاً طويلاً ، وواكبتها حالات اليمة . ذلك ان قبل وفـــاة والدتي حضرت جماعة من الذين يعملون في مستشفى يزد لزيارتها ، وكان على رأس الوافدين الطبيبة المسؤولة عـن ذلك المستشفى . وأظهرت امي عند ذاك رغبة بأن يعنى بتربية احد اولادها التربية المسيحية . وطلبت بأن أُرسل الى مدرسه مسيحية . ولكن من يأخذ هذه المسؤولية على عاتقه ؟ ! وهـــل يقبل والدي بأن يسمح لي بالذهاب ؟! .

وفعلاً فإنه من الصعب على الوالد في البلاد الاسلامية ان يسمح لولده ان يتربى تربية مسيحية صرفة . وكانت المس كنغدون التي قررت ان تلبي رغبة امي ، ممسوحة بروح الله . وكانت كغيرها من بنات جنسها الانكليز صاحبة عـزم اذا مـا قررت شيء تنفذه وحملها ايمانها بالله وصحبتها لوالدتي بأن تضغط على والدي ليسمح لها بأخذي الى يزد لاربى في مدرستها .

واخيراً قبل والدي وفرحت المس كنغدون ووالدتي . وكأنّ الله الذي هو سيّد التاريخ والمتحكم في مصير الناس هوالذي رسم هذه الخطه لحياتي . ولما لم يكن في يزد مدرسة للصبيان اتخذت

الترتيبات لان ادخل مدرسة البنـات ، لا سيما واني كنت صغير السن بعد . وهناك وضعت مع عائلة ايرانية مسيحية جاءت من اصفهان لتعمل في مستشفى يزد .

وسرت مع والدي من تافت الى يزد ، قاطعين مسافة ١٥ ميلاً . وكنا نسير في الليل لنتجنب الحر ، وعندما اتعب كان والدي يحملني على كتفيه . وسررت بمنظر السماء الصـافية والمرصعة بالنجوم المتلألئة .

ولا بد من التنويه بأن الذكريات التي احملها عن مدرسة يزد كانت ذكريات سارة . وقد علمتني مديرة المدرسة حروف الهجـاء في اللغة الفارسية .

وكثيراً ما كنت اذرف الدموع عند سماعي بعض قصص الكتاب المقدس المثيرة ، مثل قصة يوسف واخوته . وحفظنـا بعض المزامير عن ظهر اللقب . واتمنى لو حفظت عند ذاك عدداً اكثر من المزامير . وكنت اقضي بعد الظهر في الخياطة شأن باقي الطالبات . وكم فرحت عندما خيطت كيساً وطرزت محرمة . ولما كنت مغرماً بالاقلام وبالورق ، فقد كنت انفق كا ' كان يعطى لي من نقود على ابتياع هاتين المادتين .

ولا اذكر الكثير من شؤون الكنيسة لاني كنت صغير السن عند ذاك . بيد اني اذكر ان الجماعة كانوا منهمكين في بناء كنيسة كبيرة وجديدة . وهي الكنيسة التي جرفتها السيول بعد ١٦ عـــاماً . وترتسم ايضاً في مخيلتي صورة عن اجتماعاتنا للترتيل ولدراسة الكتاب المقـــدس ، او للتفرج على صور تعرض في الفـــانوس السحري .

وكان اصحاب البيت الذي سكنته عروسين جديدين . واتجـه اهتمامها بشؤونها الخاصة اكثر من اهتمامها بولد غريب نظيري . ولم يكن ذلك البيت الذي سكنته مثالياً لا سيما لولد في عمري ، وممن هو على شاكلتي ممن فقد امه حديثاً . ولكن بالرغم من كل هذا فإن العروس كانت تعاملني معاملة لطيفة . وقد طلبت منها المس كنغدون ان تعلمني الصلاة الربانية ففعلت

كثـــيراً ما كان يأخذني زوجها على دراجته في نزهة على طريق تافت او يعلمني بعض الكلمـات الانكليزية . وفحصتني مديرة المدرسة في نهاية السنة المدرسية ، واذكر انهـــا أعطتني صورة بدلاً عن ورقة العلامات . اما عطلة الصيف فكنت اقضيهـــا عند والدي في تافت . ولمـــا بلغت السابعة من عمـــري لم

يسمح لي بالدرس في مدرسة البنات ، فكان لا بد من ارسالي الى اصفهان بحيث كان للارسالية كلية للصبيان هناك . وفيها ايضاً مدرسة تمهيدية تابعة لها .

وشق على والدي ان اتغرّب الى اصفهان . ولكن المس كنغدون استطاعت اقناعه . فسرت مع والدي بعد ان استأجر حماراً ، مرافقين احدى القوافل التي كانت في طريقها الى اصفهان . وكان منظر الطبيعة جميلا ، لا سيما عندما تنعكس اشعة الشمس في الصباح او عند الغروب ، على تلك السلسلة من الجبال الشاهقة . وما اكثر ما رددت كلمات المزمور الثامن : « ايها الرب سيدنا ما امجد اسمك في كل الارض حيث جعلت جلالك فوق السماوات »

وكان والدي يجد لذة في الاستماع الى هذه المزامير التي كنت اردّدها ، او الاشعار التي اتلوها . وعندما كان يسألني من أين لي بهذه المعارف ؟ كنت اجيبه بافتخار ، هذا ما حصلت عليه من مدرسة يزد . واتيح لي اثناء الطريق ان اركب في سيارة شحن وفوق تنكة من الماء . والمعروف ان السيارات في ذلك العهد كانت نادرة الوجود في ايران . وبعد مسير ٢٠٠ ميل وصلنا اصفهان في ظلمة الليل .

وكان لا بد للقافلة من عبور احد الجسور التاريخية . ولاول مرة شاهدت الانوار الكهربائية صفوفاً من الاضواء تتلألأ فوق ذلك الجسر . وانساني منظرها مشقات السفر وسحرت بها .

وفي اليوم الثاني أُخذت الى مدرسة ابتدائية ، وسلمت لعهـــدة رجل قدّر له ان يلعب دوراً هاماً في حيـاتي . انه رئيس تلك المدرسة واسمه « جليل آغا » .

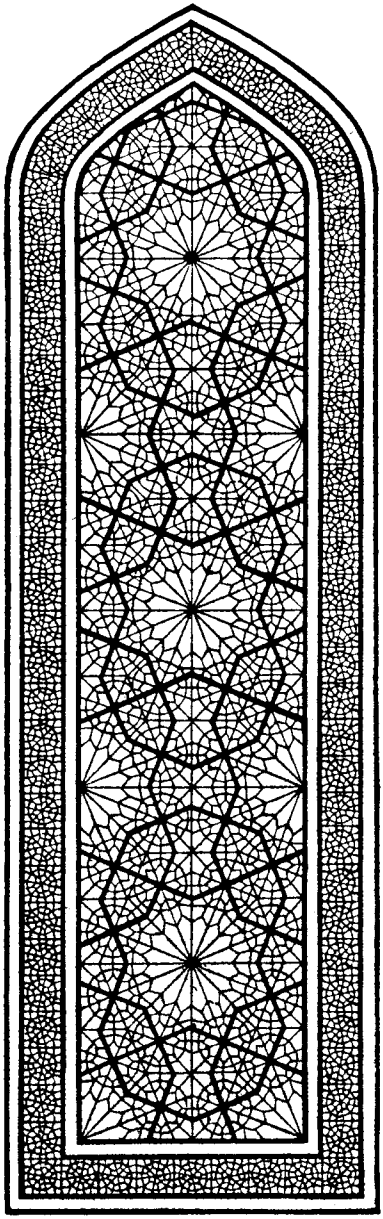

الفصل الثاني

في ايران مثل شائع ومنطوقه . « اصفهان نصفي جهان » ومعنى هذا ان اصفهان هي نصف العالم . وفعلاً فإن اصفهان تعتبر من اكبر مدن ايران وابدعها . ويرجع تاريخها الى زمن كورش ، والى امجاد الاكاسرة قبل زمن الاسلام . وفي اصفهان آثار لهيا كل قديمة كان الزورستريون يقيمون فيها الخدمات التعبدية اكراماً للنور والنار .

وعند الفتح الاسلامي في القرن السابع تحولت اصفهان الى مدينة اسلامية . اما امجد ايامها فترجع الى القرن السابع عشر ، والى زمن حكم اسرة سفاقس . فهؤلاء اتخذوا اصفهان عاصمة لهم ، وبذلوا كل جهودهم لجعلها جميلة وجذابة . انهم اقاموا ساحة من اكبر الساحات في العالم وسط تلك المدينة ، وما زالت هذه الساحة قائمة حتى هذا اليوم ، وهي تعرف باسم « نقشي جهان » التي معناها بالعربية « مخطط العالم » .

وسرعان ما بنيت المساجد والقصور والاسواق حول تلك الساحة . واخذت الابراج والقباب تتعالى من هنا وهناك بحيث ان اشعة الشمس الذهبية تنعكس دوماً على قبابها الذهبية . وشكلت الاشجار والمآذن التي احاطت بالساحة منظراً

رومنتيكياً جميلاً ، يراه الزائر من بعيد ولا ينسى تأثيره .

وقد احاطت الانصبة القديمة في الوقت الحاضر بنايات حديثة معطية منظراً خاصاً للمدينة ، ومكسبة اياها روعة منقطعة النظير . وهكذا غدت اصفهان ملتقى الشرق والغرب ، ولم يكن هناك مكان التقى فيه النقيضان كما في مدينة اصفهان .

وكوّنت اصفهان منذ القديم مركزاً عظيماً للعلم . ففيها كلية لدراسة اللاهوت الاسلامي ، تأسست منذ زمن اسرة سفاقيس وخصص آخر ملك لهذه الاسرة غرفة خاصة له في تلك الكلية لانه كان من المغرمين بالدراسات الدينية . واشتهر اهل اصفهان بميلهم للفن ، وبمهارتهم في الصناعات اليدوية . وجذبت اصفهان السياح من جميع اطراف العالم . فهناك هم يشاهدون الرسوم على القماش ، والنقش على الرخام ، وباقي الصناعات الفينة التي تدل على المهارة والاتقان والابداع .

وتشتهر اصفهان بفاكهتها اللذيذة . ويروي « نهر زابندا رود» سهولها واراضيها . وتتوفر المياه للفلاحين في اصفهان اكثر مما في يزد ، ولذلك فإن المزارعين في هذه المدينة يستطيعون زراعة الاشجار والبذور من مختلف الاجناس .

ولاصفهان تاريخ طويل بالنسبة لاحتكاكهم بالمسيحيين . وكانت آخر مناسبة لهم عندما نقل الشاه عباس الالوف من الارمن من شمال غربي بلاده الى عاصمته اصفهان . وكان الشاه قد بنى عند الشاطىء الجنوبي للنهر مدينة صغيرة اسكنهم فيها ، دعاها هؤلاء النازحون « جلفا » تذكاراً لوطنهم الاصلي .

ويشتهر الشعب الارمني بحبه للفنون وبميله للاستقلال وانعزالهم عن العاصمة . وقد انحصر احتكاكهم بالمسلمين غير انّ كنائسهم ظلت الوسائل الوحيدة للشهادة المسيحية . ولم يكن مسموحاً عند ذاك للمسيحيين ان يبشروا بالانجيل بين المسلمين . ومن اجل ذلك غدت المسيحية منكمشة على نفسها ومهتمة بشؤونها الخاصة . وهكذا هي اضاعت روح الشهادة والكرازة

وتبنت جمعية التبشير الكنسيّة (C. M. S.) اواخر القرن الماضي بناء مستشفى ومدرسة في « جلفا » لهؤلاء الارمن . وعن طريق هذه الاحتكاكات انبعثت حياة جديدة بينهم . ولما لم يكن يسمح للمرسلين ان يعلموا داخل مدينة اصفهان فإن عملهم اقتصر في بادىء الامر على جماعات الارمن . انما ما عتم ان فتح الله طريقاً للمرسلين وذلك عندما سمح لاحد اطبائهم المشهود له

بدماثة الاخـلاق والوداعة والصدق والامانة بابتياع قطعة من الارض داخل المدينة . وعني هـــذا الطبيب بإنشاء مستشفى كانت الحاجة اليه جدّ ماسة . وبعد ذلك بنيت كنيسة بجواره ، ما زالت قائمة حتى هذا اليوم .

وعلى الاثر انتقلت مدرسة الارسالية الصغيرة من « جلفـا » الى المدينة . وابتاعت الارسالية قطعة من الارض بنت فيهـا كلية دعتها « كلية سيتوارت » . وسميت كذلك احيـــاء لذكرى الاسقف سيتوارت النيوزلندي الذي عمل مرســـلا في الهند . وعندما احيل هذا الاسقف الى التقـــاعد قدم الى ايران ليعمل هناك رغم شيخوخته . وكان ذلك بدافع من محبته للمسلـــمين وأسست هذه الارسالية ايضاً مدرسة للبنات قرب المستشفى . لكنها نقلت فيما بعد الى جوار كلية الصبيان تاركة فقط مكانهـا مدرسة ابتدائية بسيطة .

والى هذه المدرسة الابتدائية ذهبت عندما قدمت الى اصفهان . وكان لهذه المدرسة اربعة صفوف ، ونزل لاقامة الطلبة الاغراب . وقد يكون أسوأ ما يحدث في مؤسسات الارساليات ادعـــاء بعض المهتدين بالمسيحية ، في [illegible] يعلنون ذلك بـــين

جماعـاتهم . فهم يعرجون بين القديم والجديد ، وفي هذا ضرر كبير على حياة الكنائس الحديثة . واذكر ان الايرانيين المسيحيين الاوفياء كانوا قليلي العدد وانا صغير .

وكان من حسن حظي ان يكون مدير المدرسة رجـــل فاضل عرف باسم « جليل آغا » . فقد كان معلماً ومديراً ، وان كانت تنقصه بعض المؤهلات التربوية ، الا انه لم يكن مرائياً ، ولا ممن يعرجون بين الفرقتين . وفي الوسع أن نقول عنه انه كان مخلصاً في مسيحيته الى ابعد حدود الاخلاص .

كان جليل آغا من بلاد القفقاس . وكان والده عقيداً في جيش الملك . واستدعي الى اصفهان ليدرب الجيش المحـلي فيه . انه كان مسلماً سنياً وميالاً بطبيعته الى التصوّف . وكان الوالد قـد بذل جهوداً كبيرة لتعليم ولده وتربيته التربية الكامـلة . وقد اظهر ابنه جليل رغبته للتعليم وميلا خاصاً للفنون ، فغدا خطاطاً وشاعراً ومتضلعاً في الادب الفارسي . وعني الوالد بـأن يتعلم ابنه الفرنسية والانكليزية . والذين يعرفون امثال هذه اللغات الاجنبية كانوا نادرين ومحدودي العدد .

وكان جليل يشكو من داء في صدره . فقصد المستشفى المسيحي

باصفهان للمعالجة . وهناك احتك هذا الشاب بالمسيحيين وأخذ يقرأ الكتاب المقـــدس بصحبتهم . وجذبه ميله الصوفي الى المسيحية . وما عتم ان اجتذب الى شخص المسيح مسلّماً نفسه ومواهبه لخدمة ملكوته وكنيسته . وهـذا توفقت كنيسة ايران الى شخص مخلص نظير جليل آغا .

وكان جليل آغـا قد تفهم الادب الفارسي وهضم ثقافة اهـــل فارس . ثم دمج كل هذه المعارف كلها بالروح المسيحية . فقدم للكلية احسن الترانيم واروع المنظومات . وكتب بيده عـدة كتب وكراريس ، مصوّراً البعض منها وواضعاً اياها موضـــع التداول . ولم يكن هناك من هو انسب منه لادارة المدرسة التابعة للكلية . وكان قد تزوج بفتاة مسيحية ، تعينت للاشراف على ادارة المنزل التابع للمدرسة .

وكفنان كان جليل آغـا مرهف الاحساس ، وغـــير قادر في السيطرة على عواطفه . ومن صفاته انه كان صريحاً وجريئـــاً فيقول ما في قلبه غير خائف لومة لائم . وهكذا فإن شخصية جليل آغا أثرت علي كثيراً . فغدوت من المعجبين به ، ومن محبي المدرسة والكنيسة ، ولا بد وان يكون هو بدوره قد تأثر من

كوني بعيداً عن بيتي ولا سيما بعد موت امي . او انـه رأى فيّ شيئاً يشبه ما كان يشعر به في قرارة نفسه . فمنذ صغري كنت قد احببت الشعر والخط واموراً مثل هـذه . وحـين يشابه الواحد الآخر تتولد عادة محبة بين الوالد وابنه، والمعلم وتلميذه ، والصديق وصديقه .

وارتكز معظم البرنامج في المدرسة على تدريس الخط ودرس الكتاب المقدس ، والشعر . اما المواضيع الاخرى كالحساب والموسيقى والرسم فـلم تكن مهمة في نظر المسؤولين عنـد ذاك . وكانت الصفوف صغيرة ، لذلك فقد كان في وسع المعلم ان يعير اهتمامـاً خاصاً للافراد . من اجل هذا نلت عناية خصوصية من معلمي « جليل » . ولم يمض زمن طويل حتى بدأت انظم الشعر واظهر ميلا لان اكون خطاطاً . وكلما تفتحت هذه الميول فيّ ازدادت محبته لي وثناؤه عليّ . وكثيراً ما كان يقارّني باولاده ويكيل لي مديحاً مما جعلني أخشى بأن يتلفني بهذه المعاملة اللينة ، وبهـذا الدلال المستفيض . وعندما وصلت سن المراهقة صرت اشعر ببعض الغرور في نفسي .

ولا يعني هذا ان معلمي لم يقاصصني ابداً . لكن الذي لاحظته

انه لم يقاصصني عندما كنت استحق ذلك ،او عندما كان ذلك ضرورياً . واذكر مناسبتين عوقبت عليهما بالضرب بـدون أن اعرف سبباً سوى ان المعلم كان في حالة غضب .

اما في فرص الصيف فـــاني كنت اذهب الى البيت في تافت . وكان البيت والمدرسة عند معظم الاولاد تشكلان مجتمعاً واحداً. اما من جهتي فالانتقال من المدرسة الى البيت كان يشكل انتقالاً جذرياً . اذ ان الفجوة التي فصلت بين حيـاة المدرسة والبيت كانت كبيرة . انها كانت كالفرق بين المسيحية والاسلامية . فجو المدرسة كان مسيحياً في حين ان جو البيت كان اسلامياً ، وهكذا اخذت تافت تبدو مختلفة عن اصفهـــان وجو المدرسة متبايناً عن جو البيت .

وفي الاسابيع الاولى من عطلتي كنت اعتبر نفسي مسيحيـــاً ، فاحاجج وادافع عن معتقداتي . ولكن عندما كنت انغمس في جو القرية واغمر بتأثير تلك البيئة اعود الى ديني القديم وأهدأ واستكين . وبعد العطلة عندما كنت اعود الى المـدرسة كنت ابدأ حياتي هناك كطالب مسلم ،بيد ان حيـاتي ، باستمرار ايام الدراسة ،كانت تتدرج في الطريق المسيحية وتسير في ذلك الاتجاه .

وتأرجحت هذه الحالة الروحية والفكرية اثناء عطلة الصف التي قضيتها في البيت ، وذلك لما كنت بين العاشرة والحادية عشرة من عمري . ولكن بعد ذاك اخذ تأثير المدرسة يرجح على البيت اذ قررت ان اترك حالة الميوعة واصبح مسيحياً . ولما كنت اعيش في بلدة تافت كنت اميل الى التبشير اكثر من أي وقت او مكان آخر . وقد خلق مني جو الكنيسة والمدرسة التي عشت فيهما في اصفهان واعظاً فتياً . وكثيراً ما كنت ادخل في محاججة مع والدي واخوتي ومع شيوخ القرية في شؤون الدين .

وكان وقع قبولي المسيحية عظيماً على والدي وعلى اخي يحيى . ولم يسمح لي والدي بالعودة الى اصفهان بتأثير من شيوخ القرية ، وخشية ان اصبح مسيحياً . ولذلك هوقرر بأن يرسلني الى احد الكتاتيب المحلية . وكانت هناك مدرسة بسيطة يديرها شخص عرف « بالملا » . هذا كان يجلس الاولاد حوله وهو حامل عصا كبيرة في يده . وقررت ذات يوم الا اذهب الى المدرسة . فما كان من الملا الا ان لجأ الى طريقة لارهابي ، او ربما كانت هذه طريقته في مقاصصه المذنبين من الاولاد .

فقد جاء بولد سيء الحظ والبسه ملابس تثير السخرية ، ثم دهن وجهه باللون الاحمر واخذ يطوف به في شوارع تافت على حمار .

وكان الولد يرتجف خوفاً ، وهكذا قضى الملا طيلة ذلك اليوم بتنفيذ العقاب على ذلك الولد بتلك الطريقة النابية . ولكنني رغم هذا الارهاب رفضت العودة الى مدرسة الملا ، وما كان من والدي الا ان ارسلني الى مدرسة حكومية فتحت ابوابها حديثاً في تلك القرية .

ومما لا ريب فيه ان خطة حياتي كانت في يد الله ، ولا يمكن لبشر ان يتدخل فيها . وكان ان وردت ست رسائل موجهة لوالدي ولي . وكلها رجاء بأن اعود الى مدرستي في اصفهان . فقد كتبت المس كنغدون رسالتين لوالدي بهذا الخصوص . وجاءت رسالة من معلمي المحبوب جليل آغا . وقد كتبها بخطه الجميل وهو يطلب من والدي ان يعيد النظر في قراره . انما والدي ظل مصراً على رأية وكان يقول : ما زلت يا حسن ولداً قاصراً وانا مسؤول عن امور دينك ودنياك ، ولكن عندماتبلغ سن الرشد فاترك لك الخيار في ان تتصرف كيفما تشاء . واني لا استطيع لك السماح بالعودة الى اصفهان لان أهل القرية لا يريدون ذلك . وهكذا كانت اجوبة والدي على تلك الرسائل والعروض تأخذ صيغة النفي والرفض .

ولم تستسلم المس كنغدون للواقع بل أوفدت اثنين من مسيحيي

كنيسة يزد ليقابلا والدي . وكان احدهما واعظاً والثاني ممرضاً. وسألاه بأن يسمح لي بالعودة . وتأثر والدي من فصاحة لسانهما ، ورجع الى القرآن ليستنير به عند الجواب . وارى الله والدي بأن ذهابي الى اصفهان يكون لخيري . وهكذا عدت مرة ثانية الى اصفهان .

وعندما ودعت جدي عرفت انه ربما يكون آخر وداع لي . وكان وداعه لي مؤثراً اذ قبّلني قبلة حارة ، وشعرت بلحيته الكثيفة تغطي وجهي الصغير . وقال : انت لن تترك دينك يا ابني ، وكان يشير بالطبع الى الاسلام . اما انا فأخذت قوله انه يعني الدين الجديد الذي بدأت اميل اليه . وهكذا فقد تمسكت بالايمان المسيحي وبقيت اميناً لهذا الدين حتى النهاية .

وما عتم ان صدر امر حكومي باغلاق جميع المدارس الابتدائية الاجنبية ، وكان من جراء ذلك انأُقفلت مدرسة الكلية الفرعية التي كان فيها اربعة صفوف . وعلى الاثر توجه المدير جليل آغا الى طهران ليسعى لدى السلطات بالسماح له بأن يزيد صفاً على مدرسته في تلك السنة ، املاً بأن يضيف اليها صفاً آخر في السنة التالية . وبهذه الوسيلة يستطيع الطلاب انهاء دراستهم الابتدائية

وتكللت مساعي المدير بالنجاح ، فعاد بعد ان استحصل على هذا الاذن . ولا بدّ وان يكون حصوله على الاذن خطة مدبرة من الله رتّبها القدير لاتمام مخطط حياتي . وهكذا تسنى لي ان انهي دراستي الابتدائية في مدرسة مسيحية . واعتقد ان هـــذا هو الطريق الصحيح الذي فية يستطيع المسيحي ان يتطلع الى التاريخ فيرى يد الله تعمل في كل الاحداث ، وتحرك نسيج حياة الافراد والشعوب .

وحدث ان نلت شهادتي الابتدائية وعمري ١٣ سنة . وبعـــد هذا أُقفلت المدرسة الفرعية لكلية ستوارت . ولهذا تقـرر ان اتابع دراستي في القسم الثانوي من الكلية ، وان اظل ساكناً في بيت جليل آغا . وسارت الامور سيراً حسناً ، وكان كل شيء مرتباً ومنتظماً . وما عكّر الجو سوى ذلك الحـادث الاليم الذي فوجئنا به بوفاة سوكات خانم ـ زوجة جليل آغا . وكان تأثير هذا علي كثيراً اذ انتهت به الحياة البيتية المنتظمة لجليل آغا وحياتي . وقـــد تأثرت عواطف جليل آغا الحساسة لدرجة متناهية من هذا الحادث الاليم وظل هذا التأثير شديداً عليه حتى نهاية حياته .

والمعروف انه ليس هناك مكان أهنـأ للولد من بيته . ولا من

شخص ألزم لنموّه الصحيح من والده ووالدته . ويحتاج الولد لنموه الصحيح الى حياة منتظمة في الطعام والنوم ، والعناية والمحبة . ولم اكن قوياً في جسدي ايام صغري بل كنت نحيف البنية . ولم يكن في الامكان تحسين حالتي الطبيعية النحيفة لعدم وجود اي شخص مسؤول يعتني بي لا سيما بعد وفاة والدتي ، ووفاة سوكات خانم . كان هناك من يهتمون بحياتي الروحية ، اما اهتمامهم بنموي الجسدي فكان امراً عارضاً ، ولذلك فقد ظلت تلك الناحية مهملة .

واهتم الذين عرفوا فيّ الميل للخط بأن يجعلوني اكتب لهم آيات من الكتاب المقدس بخطي . وكانوا يسرون كثيراً عندما يرونني أعرف بعض الآيات او القصص الكتابية . ومن المؤسف أن هؤلاء لم يهتموا بمأكلي وبمنامي . وكان من جراء ذلك ان انتابتني سلسلة من الامراض . فاصبت اولاً بالملاريا ، ومن ثم بغيرها من الحميات . وغدا المستشفى بيتاً لي اكثر من اي مكان آخر . ولما كنت بين الخامسة عشرة والسادسة عشرة صرفت ما يقرب من الستة اشهر في المستشفى . ولذلك فأنا لم استطع ان اقدم امتحانات في نهاية ذلك العام .

ولا سبيل للإنكار بأن سيدة وجدت عند ذاك اعارتني جل اهتمامها

وتلك السيدة كانت معلمتي في مدرسة الاحـــد وهي المرسلة الانكليزية . واني اشعر بدين لهـا . فقد كانت هذه المرسلة تعلمني الـــترانيم الدينية ، وتدربني على تمثيـل بعض الادوار كروايات عيد الميلاد ، لا سيما عندما كنت أُقيم في النزل الصغير التابع للمدرسة الفرعية لكلية ستوارت .

ولا يقتصر ديني لهذه المرسلة على الامور التهذيبية والروحية ، بل تعداه للامور الجسدية ايضاً . فقد لاحظت هـذه السيدة ضعفي ولمست مرضي لمدة طويلة ، لهـذا هي اهتمت بتزويدي بكميات من الحليب وببعض الاطعمة الخاصة . ولكن هذه العناية وان كانت انقذتني من خطر الموت ، الا انها لم تكن كافية لان تحول دون مرضي . وكان الجميع يخشى بـــأن أرث عن والدتي داء السل الذي ماتت فيه . ومن اجل هـذا أُدخلت الى المستشفى للفحص والمعاينة ، وكان عمري عند ذاك ١٦ سنة . وكنت اعرف ان أقرأ الانكليزية قليلاً . اما نتيجة الفحص فكانت مطمئنة ، اذ وجد انني خال من السل . فخرجت من المستشفى ، بيـد انني ما زلت معتل الصحة وضعيف الجسم . وساعد على حـل مشكلتي الجسدية بعد ذاك قسيس الكنيسة في اصفهان . فقـد عرف هذا المرسل مـا احتاج اليه لا سيما في أمر تنظيم الحيـاة .

وكانت التكاليف في نزل الكلية غالية ، ولم يكن من الحكمة ان اسكن في بيت احد المرسلين لان هؤلاء يعيشون في بيوتهم عيشة تختلف عن معيشة اهل البلاد المواطنين . لذلك اعطيت غرفة لاعيش فيها وحدي . ولمدة ثلاث سنوات كنت مثل روبنصن كروزو اعيش في جزيرة منعزلة .

وكنت اتناول طعام الغداء في المستشفى ، اما الفطور والعشاء فاعتدت ان ادبره بنفسي في غرفتي . وحاول اصدقائي المرسلون تنظيم حياتي ، وللشهر الاول اخذت زوجة احد المرسلين تواظب على اخذ حرارتي صباحاً ومساء . ولمدة طويلة اخذ القسيس يزورني وينصحني بالنوم طويلا ومرتاحاً ، واذا كان الطعام الذي قدمته لي معلمتي في طفولتي قد انقذ حياتي من المرض ، فإن النوم الهادىء المريح الآن اعاد لي صحتي ، وجدّد نشاطي .

وكان التأثير النفساني والفكري علي قوياً . ولم يبرحني الوسواس من مرض السل . وكنت اشعر بأني اعيش كالطير في عشه وسط الغابة وحيداً . وكنت قد قررت منذ العاشرة من عمري ان اغدو مسيحياً . ولما بلغت الحادية عشرة قرأت الكتاب المقدس وكتاب « سياحة المسيحي » باللغة الفارسية .

وقد أثر علي كثيراً سيرة هـذين الرائدين ، ساندرسنغ الهندي وكاغاوا الياباني . ومنذ ذلك العهد بدأت احب هذين الشخصين كما ان تعاليم المسيح اخذت تبرز امامي كأسمى تعاليم عرفتهـا . كيف لا – وهي تتحدث عن محبة الاعداء ، ونقـاوة القلب والفكر ، والحياة الزوجية المثالية . وما ارفع النظرة المسيحية تجاه الحياة والموت ! فهذه الامور جعلتني ان افضل المسيحية على غيرها من الديانات .

ولم تقبل الكنيسة ان تعمدني قبل ان ابلغ الثامنة عشر من عمري . وكنت في حياتي اميل للدين كثيراً ، واحارب العادات السيئة التي كانت مستحوذة عليّ . وبدأت كذلك اتخذ قرارات سليمة وابني لنفسي عادات طيبة . وما زلت احتفظ بكتاب سجّلت فية ٧٧ قراراً اتخذتها لاطبقها على نفسي وانا صغير . واذكر انني دونت هذه القرارات بعد حضوري مدرسة صيفية لدراسـة الكتاب المقدس . وفي تلك الفترة كان شعوري الديني قوياً ،

وكنت عند ذاك مشتاقاً لان اصل درجة الكمال بقدر المستطاع . قبل سنة من تنصري كتبت لوالدي رسالة اخبرته فيها عن رغبتي الاكيدة في ان اكون من اتباع يسوع ، وان اعتنق الدين المسيحي

واذكر انني كتبت فيها ما يلي ، ولا شك انها كانت ثقيلة على كاتبها ولمن كتبت اليه :

اعلم يا والدي بأن المرء لا يستطيع ان يرضي الله عن طريق الصوم والحج والصلاة . فهو يحتاج الى ايمان قوي ونقي . ولا يستطيع احد ان يخلّص نفسه ، انما الخلاص يهبه الله لكل من يسعى اليه . وكل انسان حر في اختيار الدين الذي يريده . وقريباً ساصبح في سن الثامنة عشرة وهي السن التي فيها اعتبر مسؤولاً عن امور ديني . وربما سخرت يا والدي من رسالتي هذه ، ولكن هذا ما اختبرته بنفسي عن الله . واني ارجو ان تقرأ مع اخي الكتاب المقدس الذي كان يخص والدتي والذي ما زال في البيت ...

وبعد كتابة هذه الرسالة بثلاثة اشهر قبلت المعمودية . وغدت السنوات التي تلت ذلك سنوات بركة وسعادة لي . وعندما ذهبت للعطلة الصيفية حاول والدي ان يثنيني عن عزمي وان يقنعني بأني على خطأ ، وبأن الافضل لي ان اعود الى ديني . ولم يعد أهل القرية يظهرون الود الذي كانوا يظهرونه لي سابقاً . ولم يقبل

افراد عائلتي ان يتناولوا طعامهم من الصحن الذي استعمـــله . وكانوا يغيّرون ملابسهم كلما حان ميعاد الصلاة . ولم يظهروا شيئاً من القسوة تجاهي . وكل ما قاله والدي انه استلم كتابي وسمع قراري ، وتصوّر بأن يده اليمنى قد قطعت . ذلك لأنني لم اعد جزءاً منه بل مفصولاً عنه . وما كان مني سوى ان أُصلي من اجل ابي وأخي ... وانا ما برحت أُصلّي مـن اجلهما حتى هذه الساعة .

وتسلمت في اصفهان مسؤوليات جديدة في الكنيسة ، اذ طلب مني ان اقرأ بعض القراءات في الخدمات التعبدية ، وان اترجم بعض الترانيم الجديدة . ولست انسى مطلقاً الحماسة التي تجلّت لي وانا شاب . وكذلك في الكلية ، فقـد اخذت امثّـل دوراً هاماً في حركة الاتحاد المسيحي فيها . واني اذكر الحادث التالي من ايام الكلية .

تجادلت مرة مع ولد اعلى بصف مني . واثناء اشتداد وطيس المحاججة هدّدني ذلك الولد بأن يضربني فقلت له : انا كمسيحي لا اضربك ، فصفعني على خدي فلم احرك ساكناً . واعاد ذلك ثلاث مرات . ثم توقف وقال : لا تظن انني توقفت خجلاً من

دينك . ودونت ماجرى بيننا عند ذاك في مذكرتي ..
واذكر اني بعد الظهر دخلت الى كنيسة الكلية وصرفت قسماً من اوقات فراغي بالصلاة من اجل ذلك الولد . وكنت قد قررت بأن لا اخبر المدير بالحادث بل استشير الله بالأمر . وحملني معلم الكشافة وكان غير مسيحي بأن اخبر المدير بما حدث . والتأم مجلس الطلبة وحكم على ذلك الولد بأن يعتذر لي. وكان ذلك صعباً عليه ، لا سيما وانه كان اغنى مني مادياً .

وصدر عند ذاك قانون يقضي بأن تتسلّم الحكومة كل المعاهد التهذيبية الاجنبية . وكنت احتاج لسنة اخرى لانهاء دراستي في الكلية . وأُعطيت الكلية مهلة سنة ، وتلك السنة كانت كافية لي ولكل ما احتاجه . وكانت تلك السنة الاخيرة سنة خير لي ، اذ اسندت اليّ مسؤولية قياس احوال الطقس . واعطيت ايجاراً لقاء ذلك فمكنني من الالتحاق بنزل الطلبة ، والعيش فيه . وكان عدد الطلاب في النزل قليلين لانها كانت السنة الاخيرة من حياة الكلية .

ونشبت الحرب الكونية الثانية في ايلول عام ١٩٣٩ — ونلت شهادتي في حزيران عام ١٩٤٠ — وانتقلت بعد ذلك ادارة

الكلية من الارسالية الى يد الحكومة . انما خطة حياتي التي ارادها الله استمرت ولم تتغيّر . فمخطط حياتي بيد الله وهو الذي يختط ما يريده لي ولغيري من الناس .

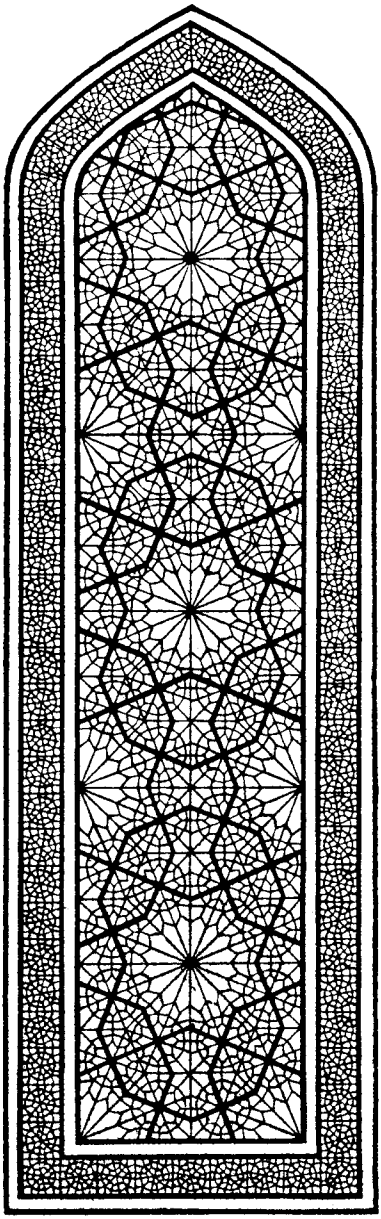

الفصل الثالث

شدّة وثقة مع المسيح وسط اليأس

اذا قوبلت طهران الآن بغيرها من مدن ايران فإننا نجدها مدينة عصرية وحديثة . ولكنها قبل ان تتحوّل الى عاصمة إيران المزدهرة ، فقد كانت قبل ١٥٠ سنة مدينة صغيرة وحقيرة . وتقوم على انقاض طهران مدينة قديمة عرفت باسم «ري» وعندما اتخذها الشاه السابق عاصمة له ، بدأ يوسعها ويجدد معالمها . ولم تمض بضع سنوات حتى ظهرت فيها الشوارع المعبدة والواسعة التي حلت محل الازقة الضيقة ، والمملوءة بالغبار . وبنيت بنايات جميلة على الطراز الغربي اتسمت بمسحة من الفن المعماري الفارسي .

وبالرغم من ان شاه البلاد السابق ظهر من صفوف العسكريين ، الا انه لم ينس ابداً اهمية التعليم وضرورته للبلاد . وكان زعيماً حكيماً وغيوراً . وقد فكّر قبل نصف قرن ، بوضع اساس لجامعة طهران ، الا ان وفاة ذلك الزعيم جمدت المشروع واوقفته . وترك لرضا شاه ان يحقق هذه الفكرة عن الجامعة ، ومن اجل ذلك هو بنى جامعة عصرية على الشاطيء الشمالي للمدينة . وهكذا نشأت جامعة طهران الحاوية كليات للطب وللقانون وللتعليم المهني ولـلآداب . وتسير جامعة طهران على النسق الفرنسي في التعليم العالي .

والسؤال الذي برز امامي : هل اذهب الى طهران من اجل اتمام

تعليمي العالي ؟ . ولو قيّض لي الذهاب ـ فأين اعيش هناك ؟ . وهل جو العاصمة وحياة الجامعة لا تؤثران على مبادىء ايماني ؟. ولا تعملان على زعزعة مسيحيتي ؟ . هذا ما شغل بال رجالات مجمع الكنيسة عندما برزت هذه القضية امامهم . وكنت قد وضعت نفسي تحت تصرف الكنيسة ، واظهرت استعدادي للخدمة المقدسة فيها .

وقبل المجمع الكنسي ان يقدم لي منحة مالية لتساعدني على مواصلة تعليمي العالي في طهران . وقد اشترط علي انه في حالة رفضي العمل معهم او عدم قبولي الرسامة المقدسة ان أعيد المال الذي اكون قد تسلمته منهم . وهذا الشرط عادل ومناسب لكلا الطرفين . وهكذا ذهبت لطهران ، وشعرت بأن تلك السنوات الثلاث التي صرفتها هناك جد ممتعة .

استأجرت في السنة الاولى غرفة في شارع مملوء بالضجيج ، اما في السنة الثانية فقد نزلت في بيت صديق لي حيث اخذت ادفع له مقابل اكلي ومنامي شيئاً عادلا ومقبولا . ولكني في السنة الثالثة اشتركت مع صديق قديم كان معي في كلية اصفهان على استئجار غرفة لنا . وكانت تلك السنة بالرغم من انها اصعب السنوات

الدراسية ، الذّها وامتعها .

وساءت احوال البلاد المالية بسبب الحرب . وسرعان ما بدأت الاسعار ترتفع . ولمدة ثلاث او اربع سنوات كان الخبز نادر الوجود . وكثيراً ما اضطررت ان اضيع ساعات وانا انتظر عند باب الخباز لاحصل على رغيف من الخبز ، وكان الاولى بي ان اقضي مثل هذا الوقت في الدرس والمطالعة وفي المكتبة . وحاولت ان افتح صفاً لتعليم اللغة الانكليزية آملا بأن احصل عن طريق هذا العمل على بعض المال ، ولكني لم اوفق بالمشروع.

واقنع صديق لي احدى الجرائد المحلية ان تستخدمني في الترجمة. واخذت اترجم لهم واقدم لهم صفحة تلو الاخرى للنشر ، لكني لم احصل على مكافأة مالية . وقد علمت ان شخصاً في تلك الدائرة كان يضيف لمعاشه ما كان عليهم ان يدفعونه لي ، اعتقاداً منه بأني جديد في العمل ، وانه يترتب علي ان اشتغل بدون مقابل لمدة من الزمن .

وطغت الفلسفة المادية على جو جامعة طهران . وانصرف الشباب عند ذاك الى دراسة الفلسفة العربية والاهتمام بها اكثر من اهتمامهم بالديانات الشرقية . واقبلوا على السيكلوجية الحديثة

دون الالتفات الى تفهم مبادىء دينهم . وباتت الرغبة شديدة لدراسة علوم الاقتصاد . وكان الاقبال على درس كتاب كارل ماركس « الرأسمال » (Das Kapital) يفوق الاقبال على درس الكتب السماوية والقضايا الدينية .

واني اعترف بأن مبادىء ايماني كانت قد تزعزعت عندما كنت ادرس في كلية سيتوارت ، ولا سيما في سنتي الاخيرة ، لمادرست السيكلوجيا العملية . انما هناك كنت محاطاً بزمرة من المعلمين المسيحيين .

واذكر ان احدهم زودني بنصيحة غالية . وهي الا اهمل الصلاة او الذهاب الى الكنيسة ، حتى ولو كان ذلك يبدو لي في بعض الاحيان انه بدون قيمة . واعترف انني اخذت بهذه النصيحة وعملت بها .

وربما اعترض احد على تصرفي بقوله : « هذا رياء » ، اذ كيف يواظب على الصلاة ، ويواصل في الذهاب الى الكنيسة مع اعتقاده بأن ما يعمله ليس له قيمة حقيقية ؟ . والافضل له ترك هذه الامور الخيالية ، والانشغال بالامور العملية في الحياة . لكن هل يليق بقائد الطائرة ان يترك مقود طائرته كلما جاءه فكر

طـارىء غريب ؟! . وما اكثر ما يستهدف امثـال هؤلاء الطيارون الى افكار فلسفية غريبة ! . وفي حالات مثل هذه من يضمن ان يسافر بأمان في الجو برفقة طائر مثل هـذا ؟! . ولا يعيش النـاس بشعورهم فقط بـل عليهم ان يتعلموا ان يسلكوا بحياة الايمان بغض النظر عن شعورهم الخاص .

وكنت بالاضافة الى حضوري المنتظم خدمات العبادة في الكنيسة الانكليكانية بطهران ، اتردد على الكنيسة المشيخية التـابعة للارسالية الاميركية . وهناك كنت اشترك في نشاطات الشبيبة المتنوعة وقبل ان يستمري الشباب العبادة المسيحية والخدمة في الكنيسة يترتب على شخص مكرس ان يساعدهم على هـذا . وكان من حسن حظي انني وجدت في احد المرسلين الاميركيين في طهران مثل هذا الشخص المنشود . فإنه كان يفتح قلبه لسماع اسئلتي العديدة .

وكانت الاجوبة التي يقدمها لي بسيطة ، ولكنها كانت تحملني على الافتكار بها لمدة طويلة . وهكـذا كان بيت هذا المرسل وامثاله في طهران ملجأ اقصده لاهدىء عقلي المضطرب واجد صفاء لنفسي الحائرة . وما احوجني الى مثل هذه الامور لا سيما في جو مضطرب كجوّ العاصمة ...!

وقدساعدتني كثير أمطالعتي للكتب التالية «معنى الصلاة» « معنى الخدمة » ـ او « المسيح الانسان او ابن الانسان » لفوزديك . وكتاب ستانلي جونس وموضوعه «الحياة المنتصرة » .

وأصبحت أُعرف بين رفقائي بالجامعة بالمسيحي . وكان البعض ينظر باشمئزاز لي ، والبعض يقدّر ذلك فيّ . اما الاكثرية فإنهالم تبال او تظهر اي اكتراث تجاهي . وهناك البعض الآخر الذين استغربوا ان يوجد في القرن العشرين شخص متعلّم ويعنى بالامور الدينية .

وكنت في اشهر الصيف اذهب الى اصفهان ، فاشترك في نشاط الكنيسة هناك ، لا سيما في مخيمات الشبيبة ، وفي مدارس الاحداث الصيفية . وعندما ازور أهلي في مدينة تافت كنت المس الفجوة التي كانت آخذة في التوسيع بيني وبينهم ، والشق الذي بدأ يفصلني عنهم .

وتخرجت من الكلية عام ١٩٥٣ ، وكان مفروضاً علي بأن اخدم العلم ، والتحق بالخدمة العسكرية . وكمسيحي فقد كنت اقاوم فكرة الحرب مهما كان نوعه . ولهذا فقبل ان التحق بالكلية المخصصة لتدريب الضباط التي يلتحق عادة بها خريجو الكليات

رغبت ان اوضح رأيي للمسؤولين بخصوص عقيدتي بعـدم تحبيذ فكرة الحرب والاشتراك في الجيش . وساعدني احد الاصدقاء لكي اقابل الرئيس المسؤول فجرى بيننا الحديث التالي :

– ماذا تروم مني ؟ وأي شيء استطيع ان اعمله لك ؟

– انا مسيحي ، وانا اقاوم كل فكرة تحبذ الحرب .

– لا حرب تدور رحاها في الوقت الحاضر في بلادنا .

– لكنني مجبور على الخـدمة العسكرية . وانا مستعد لان اتدرب على أي نوع من الخدمات الاخـــرى مهما كانت خطرة . اما أن أُدرب على القتال فهـذا مضيعة للوقت وانا غير مستعد لان اقوم بذلك .

وادرك الرئيس المسؤول الغرض من مقابلتي له . فقـال « انا لا استطيع تغيير الترتيبات او عمل شيء في هذا السبيل ، لان هذه هي مسؤولية رئيس الكلية . فهو يقدر ان يضعك في اية وظيفة يراها مناسبة . فتوجهت الى الكلية ، ولم تتح لي الفرصة بـأن افاتح المدير في الموضوع وأعطيت بدلة ضابط ، ووضعت مع فرقة

المشاة للتدريب .

واتصل الرئيس المسؤول بالصديق الذي عرفني به ، وسأله ان كان بي مسّ من الجنون . وهذا ما يفكّر به ابناء العالم بالمسيحيين الذين يخلصون لسيدهم ويرومون السير في خطواته . وانخرطت في سلك الجندية مرغماً ، وكان التدريب الذي حصلت عليه والشعارات التي أعطيت لنا مخالفة للتعاليم المسيحية التي تعلمتها . فهناك هم علمونا ان نتبع المبدأ القائل : انظر بشرط لا ترى ... أقتل ولكن لا تقتل .. وامثال هذه التعاليم المخالفة للدين . وكنا عند ذاك وسط الحرب العالمية الثانية ، وكان قد اثارها مسيحيو الغرب بعضهم على بعض . وها هم المسيحيين ما برحوا حتى هذا اليوم يهيئون الجو للحرب ، وهذا الامر يتنافى بالكلية مع مبادىء المسيح .

وعندما طلب مني تعبئة بعض الاوراق عن سيرة حياتي كتبت عند كلمة دين الطالب « مسيحي » . وعلى الاثر استدعاني الضابط المسؤول عن فرقتي وكان يركب جواداً اسود . وقال ذكرت ان دينك مسيحي ، فهل والدك مسيحي ام أن امك ارمنية ؟

– قلت : ليس لي ام لانها ماتت وانا صغير ولم تكن ارمنية.

غير انها غدت مسيحية عن طريق مستشفى الارسالية .

– اجاب : كان الاجدر بك ان تتبع دين والدك وليس دين امك

– قلت : انني لم اتبع دين احد ، اذ انني انا نفسي اخترت ان اكون مسيحياً .

– قال : اذهب عني فلست استطيع ان اثق بك .

– قلت له : اعمل ما تريد ايها الضابط . فقد كان بوسعي ان اخدعك ، ولا اكتب على ورقتي ان ديني مسيحي ، لكنني آثرت ان اكون صريحاً وامينا . ولم يحصل شيء بعد ذلك سوى ان ذلك الضابط امرني بأن اتركه . ولم يظهر احد من رفقائي العاملين معي اي امتعاض تجاهي . بل على النقيض فقد صدف ان شاويشاً وكان صاحب نفوذ اخذ يتقرّب مني على اثر سماعه هذه الشهادة الصريحة .

وحتمت علينا وظيفتنا في الجندية ان نقوم بخدمة الحراسة فكنت

ترانا لساعات نحرس دهاليز مظلمة واماكن مقفـــرة . وكانت الترانيم والمزامير التي تعلمتها في صغري تسليني في تلك الساعات الطويلة والمملة . وانتهزت مثل تلك الفرص لانظم بعض التراتيل التي ما برحت ترتل في كنائسنا .

وبعد ان انهيت تلك الدورة التدريجية ، انتدبت لاكون ترجماناً لاحد الضباط الاميركان ، الذي تعيّن مستشاراً لقسم اصفهان ، وكانت هذه اول ايامي في الحياة العملية . ولاول مرة في حياتي بدأت اتناول راتباً منتظماً . وكنت على مقربـة من الكنيسة فاشتركت عملياً في نشاطها وغدت اصفهان موطني الجديد ، وامست كنيسة القديس لوقا فيهـــا بيتي الروحي . وسررت لتمكني من ان اكون عضواً عاملا في الكنيسة ، فقدمت اوقات فراغي لخدمتها ، واشتركت في شتى مناحي نشاطهـا - وهذا مصدر سرور لي .

وعنـــدما انهيت خدمتي العسكرية قدمت طلباً للالتحـــاق بالكنيسة لاخدم ابرشيتها ، واكون قسيساً فيها .

لكن المسؤولين اشاروا علي بأن اظل في عملي مع الضـــابط الاميركي ، لا سيما وانه كان يحتاج الي . وتعاقدت معه بأن اظل

معه كترجمان مدني مدة سنة اخرى ، متقاضياً راتباً كبيراً لقاء هذا العمل . غير انه لم تمض بضعة اشهر حتى طلبت مني اللجنة التنفيذية للكنيسة ان اتقدم للرسامة المقدسة ، واستعد للعمل في حقل الرب .

وحاول الضابط المسؤول ونفر من اصدقائي أن يؤثروا علي ، بالا اكسر شروط التعاقد . وكانت الوظيفة مدعاة لتحصيل اموال اوفر من خدمة الكنيسة . انما للوظيفة سيئات ، وهي لا توقف المرء عند حد من الطمع . ومن مخاطر الوظيفة انها بطريقة لا شعورية تؤثر على حياتي الروحية ، وتخنق كل انطلاق ديني .

وكانت صعوبتي الكبرى عائلتي في تافت . فقد سر أهلي لا سيما والدي واخوتي ان يروني اشغل وظيفة مرموقة ، وتأملوا انهم عن هذا الطريق والراتب الضخم الذي اتقاضاه ان يحسنوا اوضاع حياتهم ويرفعوا مستوى معيشة العائلة . وقد كان وقع قبولي الرسامة صعباً عليهم ولم يكونوا راضين عن ذلك .

ولنتصور ابن فلاح في انكلترا في القرون الوسطى يعتنق الدين الاسلامي، فيترك وظيفته ليصبح «اماماً» ـ فهذا عين ما حصل لي ، وما كوّن مشكلتي . فأنا باختياري ان اكون تابعاً للمسيح ،

فصلت نفسي عن أهلي وعشيرتي . وبعد الرسامة لا بد ان تكون القطيعة اشد ، والعزلة اعنف ، اذ ربما اضطرتني تلك الحالة الى الانفصال بالكلية عنهم اجتماعياً وعائلياً . ومثل هذه العزلة قد تصل درجة متناهية من الشدة ، حتى ليتساءل المبشرون المسيحيون: هل من الحكمة اكتساب اشخاص للدين دون اكتساب عائلاتهم ؟ .

وقد قال المسيح في هذا الصدد « ليس التلميذ افضل من المعلم ولا العبد افضل من سيده . يكفي التلميذ ان يكون كمعلمه والعبد كسيده .. الذي اقوله لكم في الظلمة قولوه في النور ، والذي تسمعونه في الآذان نادوا به على السطوح » . متى ١٠ - ٢٤ - ٢٧ ..

وليس غريباً ان نرى نداء مثل هذا يعالي به شخص ظهر في التاريخ قبل الفي سنة ، ومثل هذا الامر ما برح يحمل قوة وسحراً ليجذب الكثيرين للاستجابة له . وها هم المؤمنون يرفقون اختيارهم هذا بعذاب روحي وعاطفي وفكري . ولم يكن الامر صعباً عليّ لكني مثل بولس الرسول لم استطع رفض الرؤيا السماوية التي كنت اراها اثناء حياتي . وشعرت كأرميا النبي عندما كلّمه الوحي الالهي قائلاً « **قبلما صورتك في البطن**

عرفتك ، وقبلما خرجت من الرحم قدستك » (راميا ء ١ : ٥) .

وذكرت الاذاعة التاريخية التي اذاعها الملك جورج السادس الراحل ، في عيد الميلاد الاول من الحرب العالمية الثانية ان قال : قلت للرجل الواقف على عتبة العام ، اعطني نوراً يهديني لاسلك في غمرة المجهول . فاجابني الصوت من العلاء : اذهب الى الظلمة وضع يدك في يد الله . فذاك افضل لك من النور واضمن من الطريق المعلوم ... »

انتهت الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥ – لكن المستقبل ما برح مجهولاً ، انما ذلك التصريح الذي اذاعه الملك الراحل ظل يرن في اذني ويسحرني ، لانه حمل ضمن طياته معنى حقيقياً للايمان في هذا العالم . انه كان بمثابة جوابي لبعض الاصدقاء الذين الحّوا علي بأن ابقى في وظيفتي التي تدر علي اموالاً طائلة تضمن مستقبلاً طيباً لي ولعائلتي . فالمال الذي اجمعه يمكن ايداعه احد المصارف ، او استثماره في الارض ، او شراء بعض الاملاك والعقارات به . وسرعان ما نقلت كلمات ذلك التصريح الى الفارسية ونظمته شعراً اودع احدى الترانيم التي نترنم بها في

الكنيسة .

وعهد الي ان اعمل بين الشباب ، وان اساهم في حـــركة الادب المسيحي، واساعد في خدمة الابرشية ، مع استمراري في مواصلة الدرس بقدر المستطاع . ومن الخـــارج ظهر ان كل شيء كان حسناً . وفرح معظم اعضاء الطائفة لانني آثرت خدمة الكنيسة على الوظيفة المرموقة التي كنت اشغلها .

وسررت بدوري لاني بدأت اقوم بالمهمة التي وجدت من اجلها . اما من الداخل فاني لم اشعر بارتياح اذ كنت ابغي التقـــدم في الخلق المسيحي ، وفي مقاومة العادات السيئة . وقـد حاولت استبدالها بما هو انبل منها ، لكنني كنت اخفيها دائماً . وقـد شعرت في قرارة نفسي باني وحيد وضعيف . وصدف ان تعرفت على سيدة مرسلة فاضلة ، فكنت أفضي اليها بمكنونات صدري ، وكانت بمثابة الام الرؤوم لي . وقد ساعدتني كثيراً في حل بعض مشكلاتي، انما هذا القلق في داخلي ظل يواكبني ...

ورتب المسؤولون لي بعد سنتين بأن التحق بكلية ردني بكمبردج وذلك للدراسة اللاهوتية . وقد سررت لهذا الخـــبر كما انني سررت ان انتدبني المجمـــع المسيحي للشرق الادنى أن أحضر

مؤتمر الشبيبة العالمي المنعقد في مدينة اوسلو . وتركت طهران صيف عام ١٩٤٧ –وبعد ان مكثت في لندن اسبوعين توجهت الى اوسلو مع عدد من الشبان الذين جاءوا من مختلف انحاء العالم لهذا المؤتمر .

ومما يثير الاعجاب رؤية ١٢٠٠ مندوب من ٧٠ بلداً يشتركون في اجتماع كهذا . ولكنني تأثرت وانا في المؤتمر كثيراً ساعة عرفت ان الطوائف المسيحية منقسمة على بعضها البعض . وان المسيحيين لا يشتركون معاً في تناول العشاء السري من مائدة الرب . ولا بد لكل مسيحي ان يتأثر من هذا الانقسام ، ويتألم له . ولا يهدأ للمؤمن الغيور بال حتى تتوحد الكنيسة وتتآلف طوائفها وشيعها .

واذكر ان الايام الاولى في كمبردج كانت جميلة وممتعة .. فالمروج الخضراء التي تملأ باحات الكلية ، والجو المسالم والجمال الساحر ، ومناظر الابنية القديمة للكليات والكنائس ، والاستمرار على مزاولة الدراسة العلمية لقرون عديدة في ذلك المكان ، كل هذا كان مصدر سروري ومثال ودهشتي واعجابي . وها انا كلما اصعد درجات مبنى الكلية في بناية ردلي افكر بالآلاف من اقدام

الرواد والحكماء الذين تسلقوها قبلي. ويحملني الاعجاب لان اجثو على قدمي ، لاقبل آثار اقدامهم وانحني امام تلك العظمة الصامتة .

لقد بدا كل هذا كحلم لذيذ ، فانا ابن صحراء يزد ، وقاطن جبالها ما عتمت ان انتقلت من تلك البيئة البدائية لاصبح عضواً مساهماً في اعظم مركز للثقافة في العالم . فأنا الآن ادرس اللاهوت في كمبردج وانهل من المورد التي يقدمونها لي وتراني في دراستي محاولاً التهام كل شيء ، وجعله قسماً من شخصيتي التي ابنيها من جديد .

وعندما انتهى دور الاستغراب ، وبدأت استقر ، اخذت اواجه وقائع الحياة على حقيقتها . ولشد ما انتابني قلق روحي ، واضطرمت نيران حرب نفسانية في داخلي . وهذه الحرب تشبه الى حد كبير ما اختبره بولس الرسول عندماقال في رسالته الى اهل رومية : « **لست اعرف ما انا افعله اذ لست افعل ما اريده بل ما ابغضه** » وتصورت ان هذه الكلمات انما كتبت من اجلي ولتكلمني في تلك الحالة التي كنت انا فيها .

وقلت في نفسي : كم يطول الزمن يا سيدي الرب ؟ . واين هي

قوة المسيح التي شددت عزم الرسول بولس قديماً ؟ وهل هـــذه القوة التي عملت الاعمال العظيمة للتلاميذ تعجز عن ان تقويني الآن ؟ وهكذا اخذت اشعر بالوحدة اكثر فاكثر ، وبـدأت اغوص في لجج من اليأس . وكأني فقدت ايمـاني ، وبدأت الوم ربي لانه اخذ امي وانا صغير . وكنت اشعر في اغوار نفسي بفراغ .. انني استفقدت للمحبة اذ حرمت حضن امي الدافيء وذراعي الوالد العطوف . ومثل هذه الافكار جعلتني ان اشعر بالوحدة والحيرة والاضطراب .

وكثيراً ما اخذت الوم اولئك الذين كانوا السبب في ابعادي عن اهلي . فأحدّث نفسي قائـلاً : بأي حق سوّلت النفس لهؤلاء ان يفصلوني عن محيطي الاصلي ، وينتزعوني عن مناهج ثقافتي ، فاعيش في وسط غريب عني ؟ وانني لو بقيت في تافت فربمـا لم اشعر بمثل ما شعرت به من توتر وقلق نفساني .. لكن عندما يطول بي التفكير الشارداعود فاقول : هل اخطأت المس كنغدون عندما رغبت ان تتمم ارادة امي الراحلة ...؟ .

وربما ارتكبت بعض الاخطاء اثناء تعليمي لكن اينا يستطيع ان يقول بان لا اخطاء ارتكبت معه في الحياة !؟ واني اعتقـد

الآن بان المس كنغدون كانت على صواب ... وان الحركة المسكونية لنشر الدعوة يجب ان تتقوّى في كل مكان . ولم يلق المسيح الكلام على عواهنه عندما قال : **«لم آت لالقي سلاماً بل سيفاً .»**

وحيثما توجد حياة فلا بد من الآلام والآمال . وهذا هو واقع الحال . والله من عظم محبته وحكمته اعتبرني احد اولئك ، الذين استحقوا ان ينالوا العذابات النفسانية والفكرية ليتسنى للحياة الروحية ان تجد لها مجالاً للانطلاق . ولكن لا يمكن لاحد ان ينقل مفاعيل الحياة الجديدة للآخرين ، ان لم تكن تلك الحياة قد غدت جزءاً منه . ومثل هذا لا يتم بدون تضحيات وعذابات وانتكاسات ...

وصدف عند ذاك ان انتحر احد اصدقائي في لندن ، فزاد هذا الحادث في اضطرابي وانزعاج افكاري . وكثيراً ما صرخت لماذا تسمح يا رب بهذا ؟ وظللت اردد هذه العبارة مراراً وتكراراً . وكثيراً ما قلقت ولم انم ، واسترسلت في الخيال افكّر بشقائي ، فاستهدفت بدوري للانتحار . وكانت تموجات الاسى تنتابني ، وتطغى على تفكيري ، فتبدأ عيناي تسكب دموعاً كالانهار . حتى انني مثل ايوب اخذت العن اليوم الذي

خلقت فيه .

وخيّل اليّ في ذلك الوقت ان القليلين استطاعوا ان يفهموني ، واذا هم فهموني فانهم لم يستطيعوا ان يساعدوني ـ وهذه العبارات التي الفناها غدت كليشات لا قيمة لها . فقولنا سلّم نفسك للمسيح .. وصلّ ليهبك الله سلام القلب .. ونقّ افكارك عندما تذهب لتنام .. والق حملك على الله ... كل هذه الادعية وامثالها لم تعد ذات تأثير عليّ . واخذت اتساءل : الا يوجد لعقولنا اشياء اخرى نقدمها ؟ !

اننا خلقنا اقوياء ، فما بال هذه الامور تعصف داخل افكاري وتمزق حياتي ، وتبدد صفاء عيشي ؟ ! وها انا في هذه الكلية استمع الى المحاضرات ، واؤدي الامتحانات ، واشترك في خدمات العبادة ، وفي الصيف احضر المؤتمرات ، لكن رغم كل هذا فاني كنت اشعر ان شيئاً ينقصني ، اذ ان نفسي ما برحت ظمآنة الى معرفة الحق ، وقلبي جائع روحياً ...

اجل كنت عند ذاك شبه المركب الذي تتقاذفه الامواج ، والرياح . وقد تعطلت بوصلته ، وفقد مرساته التي لم تعد صالحة للقيادة . وهنا وجدت كلمات النبي اشعياء تصدق علي وفي

وسعها ان تساعد كل من يسلّم نفسه لله ، مهما كا ضعيفاً عندما يقول نبي الله :

هكذا يقول الرب خالقك . لا تخف لاني فديتك . دعوتك باسمك انت لي . اذا اجتزت في المياه فأنا معك ، وفي الانهار فلا تغمرك ، اذا مشيت في النار فلا تلذع ، واللهيب لا يحرقك لاني انا الرب الهك ... (اشعيا ٤١ - ١ - ٢)

وحاولت ان احصل على استشارة عالم نفساني ، فكتبت الى خبير مسيحي اعرض عليه حالتي ، لكنه لم يجبني بشيء . ثم ترامى الي خبر قائد مسيحي استطاع ان يساعد عدداً من الشبان اثناء صعوبتهم ، فكتبت اليه طالباً مساعدته . وكنت قد سمعته يتحدث في مؤتمر أسلو ، ويخطب في لندن وكمبردج . فجاءني كتاب منه يحدد لي موعداً لمقابلتة .

وفسح هذا الزعيم الديني المجال امامي لان افصح عما يدور في خلدي . واستمع هو بدوره الي ملياً في المقابلة الاولى ، ففتحت قلبي له وكانت الدموع تتساقط من مآقيّ مدة المقابلة التي حظيت بها . وقد شعرت وانا في حضرته طيلة الساعتين ، انه يحبني ويعطف علي ، وانني عن طريقه سوف احصل على الشفاء .

وظل هذا الخبير اثناء اقامته في انكلترا متصلاً بي . وقد سمح بمقابلات اخرى ، وظللنا نتبادل الرسائل . وهذه مقتبسات من رسائله ما زلت احتفظ بها حتى هذا اليوم . قال : كثيراً ما نتساءل لماذا يدعى البعض لان يغوصوا الى وهاد اليأس واغوار الفشل . والجواب على ذلك ما يلي :

اولاً كي ينالوا الامتياز لفهم جزء من عمل المسيح الخفي لكل من لم يكن له ثمة اختبار للحصول عليه .

ثانياً ليساعدوا الآخرين الذين بسبب ظروفهم اضطروا الى التألم بطرق خاصة .

ولا يضيع الله موارده اذا هو جعل للألم غاية. فالله يعطي مكافاة ويقدّم فرصاً للخدمة . ويترتب على الناس ان يحاربوا التجارب ليحولوا دون اليأس . ومتى تأكدوا ان الله هو الذي يسيرهم فعند ذلك هم يربحون .

اجل من الضروري ان ينسحق قلب الانسان في هذه الحياة بعض المرات . ويتم هذا الانسحاق عند البعض قبل الاهتداء ويستأنس عند البعض الآخر بعد الاهتداء وملاقاة المسيح ملاقاة

شخصية . ولا يمكن للمسيحي ان يتهرب من اختبار كهـذا . وقد غدا القلق متحكماً فينا ومن الصعب ايقافه . والافضل الا يمنّى المرء نفسه بالوعود بل ليتطلع الى حاضره دوماً . وان كنا أمناء لله فإنه يحفظنا من كل شر .

لا يمكن للمرء ان يعيش يومه وامسه في وقت واحد . ويبـــدأ فشلنا عندما نعيش في ذكريات الماضي ، او عندما نبدأ بالتخوف من المستقبل . والفرق عظيم بين من يريد ان يعرف ، وهو شغوف للمعرفة ، وبين شخص لا صـبر له للحصول على تلك المعرفـة . وهناك بعض الامور التي لا يرينا الله اياها في حين أن هناك اموراً لا يرينا اياها الا في اوقاتها المناسبة. وفي كلتي الحالتـين علينا ان نكون صابرين وان نسمح لله ان ينفّذ ارادته .

اقترح صديق لي في احدى المحادثات معه أن أقرأ المزامير وسفر ايوب ، وغيرها من اسفار الكتاب المقدس. وبالفعل فان قراءتي لهذه الاسفار التي حوتها كلمة الله افرجت كربتي ، وبددت صعوباتي وتوارت مشكلاتي مثلما تتوارى الثلوج وتذوب عنـد شروق الشمس واشتداد حرارتها .

وشعرت بأن ما احتاج اليه اكثر هو التوبة . ومعنى التوبة الا

اعتبر نفسي محور العالم . ولم اكن لادرك حقيقة ذاك التصرف الذي يجعلني اعيش واتمركز حول ذاتي . وكنت طيلة ايامي اشاهد نفسي عن طريق عيني ، ولم احاول ان اتطلع اليها عن طريق عيون الآخرين ، او على ضوء صليب المسيح .

وقد حصل ان سقطت القشور عن عيني كما سقطت عن عيني بولس ، فعند ذاك رأيت حقيقة ذاتي . فتبين لي انني تمثال من الانانية والكبرياء والغرور ، وانني اشابه الغربيين الى ابعد حدود الشبه . وكنت قد خدمت كنيستي كأحد الخدام على امل أن اصبح قائداً لها في المستقبل . وقد اكملت عملي بأن تقمصت روح الفريسيين . وما ذهابي الى انكلترا في الماضي الا لاصبح قائداً دينياً للكنيسة وخادماً فيها ، فاعود اليها احسن مما كنت. ولا شك انه عن طريق تعليمي وتدريبي اصبح اكثر قدرة على تحمل هذه المسؤولية . انما الفريسي لا يمكنه ان يتعلم بل هو يروم دوماً ان يعلّم .

ها هي فرائصي ترتجف عندما استعيد الى ذاكرتي تلك الفكرة التي كانت عندي – وهي ان الكنيسة في ايران تعتمد بالكلية علي . واذا ما كنت خادماً أفيد كنيسة الله ، فإن صفة الكبرياء وجب

ان تنزع مني اولاً . ومن السهل اصلاح فتى في مقتبل عمـــره تملكه الغرور ، لكن توبة رجل مغتر تحتاج الى اعجوبـة او الى عمل الهي لتقويمه وهدايته .

والله القدير الذي رسم مخطط حياتي تمم باعجوبة مـا اراده لي . وبنعمة من السماء اخذت اشعر بأنني اهبط من المعبد المتعالي الى مستوى الحياة اليومية ، سائلاً الله ان يترفق بضعفي ويرحمني . وعندما نصل الى هذه الدرجة فكل شيء يتغيّر ويتبـدّل . وعند ذاك عرفت معنى الخطيئة ، وادركت فعل الغفران . وتلمست ما تكلفه الله من تضحية ، عندما قدّم ابنه فداء عنا على صليب الجلجثة . وحالما عرفت ذلك بدأت ادرك محبـة الله وانال الشفاء . وهكذا أخذت عناصر القلق والانزعاج والتوتر تزول عني . ومنذ ذلك الوقت بدأت انام مرتاحاً ، وادرك ان الناس ما هم الاّ خلائق الله ، وقد حصلوا على محبته بقدر مـا حصلت انا عليه .

وربما نعجب كيف حصل هذا التغير لي ؟ انني كنت قد قرأت كما ذكرت المزامير وسفر ايوب . وسمعت ما كان يقوله لي رفقائي في كمبردج ـ ولكني لم اقبل ما قال هؤلاء لي او ما حدثوني به . .

والمعروف انني اخذت مبادىء ايماني الجديد عن طريق المرسلين في بلادي . وهذه الامور كانت تكفي لدعمي موقتاً .

اما عندما ذهبت الى جامعة طهران فهناك لمست ان المتعلمين لم يكونوا ليهتموا بالدين . وفي انكلترا كان الناس الذين احتككت بهم هم من المرسلين او من اصحابهم . والمعروف ان الشيء المألوف تضيع قيمته ، والالفة حتى في المسائل الفكرية والروحية تولد احتقاراً . من اجل ذلك لم اكن لاعبأ بأقوال هؤلاء. وبرز امامي صديق اختلف عن هؤلاء الاصدقاء الذين عرفتهم فقد كان عالماً وكاتباً . وتأثرت من شخصيته كثيراً . ونصحني هذا الصديق بأن اعيد قراءة سفر ايوب والمزامير . وفي هذه المرة أخذت ارى العلي وجهاً لوجه . فأدركت وانا اطالع كلمة الله صغر الانسان وحقارته ، فشعرت كما شعر صاحب المزامير عندما هتف قائلاً : **من هو الانسان حتى تذكره وابن آدم حتى تفتقده ..**

وندمت على ماضيّ وتبت عن خطاياي . وثبت لدي على اثر مطالعتي للمزامير ان اول درجة من الايمان هي ثقة بسيطة بالله . وهكذا فعن طريق ثقتي بصديقي بدأت تتعمق ثقتي بالله .

وهناك طرق كثيرة يرجع الناس فيها الى الله . فهم لا يحتاجون الى مساعدة شخص آخر . وقد اختبرت انني اذا ما استطعت ان اثق بانسان ، فماذا يحول دون توطيد ثقتي بالله . وهذه كانت احدى صعوباتي – وهي عدم ثقتي بالناس . وهذا ما جعلني ان اعيش في عالم القلق والشك والخوف والانانية . وقد بدا هـذا جحيماً لي ...

انما الله برحمته الفائقة افتقدني وانقذني من هذه الحـالة المريعة للروح والعقل معاً . ففرحت بالرب وهتفت مع صاحب المزامير قائلاً :

احبك يا رب قوتي

الرب صخرتي وحصني ومنقذي

الهي صخرتي به احتمي

وفعلاً فقد كان التغيير الذي طرأ عليّ عظيماً وهائلاً . فقـد تغيّرت حياتي وتجددت روحي ، وهذا ما لم اكن قد شعرت به قبلاً ، فانا الآن مسيحي بالحقيقة . واخبرت صديقي بشعوري الجديد فقال : ان التغيير الذي يحصل للمرء يمرّ بمراحـل .

فالناس يتغيرون اولاً عن طريق عواطفهم ثم عن طريق عقلهم . وآخر مرحلة تتأتى عن طريق الارادة التي هي محـور شخصية الانسان .

وبعض الناس يقف تجديدهم عند المرحلة الاولى والثـانية . ولا يتقدمون لاتخاذ الخطوة الثالثة . ويكون موقفهم مثـل تلك البذور التي ورد ذكرها في مثل الزارع . فقد اكلتها طيور السماء ، او احرقتها اشعة الشمس او خنقتها الاشواك . وهكذا فإن تجددي في السابق كان غير كامـل ، اذ انه توقف عند المرحلة الثانية .. اما الآن فقد أخذ التغيير يتملك دائرة ارادتي وفكري وشخصيتي باتمها .

في عطل الصيف التي لم اكن ارجع فيها الى بلادي كنت اقضيها في زيارة الاصدقاء او في الاشتراك بالمؤتمرات او حضور الاجتماعات الاخـرى . واذكر ان اهم اجتماع حضرته هو عندمـا ذهبت كمندوب للشباب لمجمع الكنائس المسكوني الاول المنعقـد في مدينة امستردام عام ١٩٤٨ .

عندما اقترب موعـد اوبتي الى ايران ازداد الشوق في داخلي لبلادي.. ولا نكران بأن انكلترا بلاد ساحرة ، وفي كمبردج امور

مغرية ، انما انا لم افكّـر مطلقاً بعدم العودة الى موطني وبلادي وعرضت علي مرة وظيفة مغرية في كمبردج الا انني كنت مصمماً ان اعود لبلادي لاخدم الله فيها . وقبل ان اترك انكلترا ذهبت لاودع المس كنغدون وأصرف بضعة ايام عندها . وتحـــدثت واياها عن امي وعن الكنيسة ... واستعدنا ذكريات الماضي في بلادي .

وسرّت المس كنغدون مني ومن نزعاتي وميولي، وان لم تكن ترضيها بعض آرائي اللاهوتية . وتطلعت الي كأم فخورة بولدها. وبالرغم من ضعفهـا الجسدي ، فقد رافقتني الى المحطة لتودعني . وبعد وصولي بقليل الى ايران عرفت ان تلك السيدة الجليـلة قد انتقلت الى ديار الابدية .. وهكذا نجد مشعل الايمان يسلم من جيل الى جيل بطريقة عجيبة ، وفي اشكال غـــير متوقعة او منتظرة ...

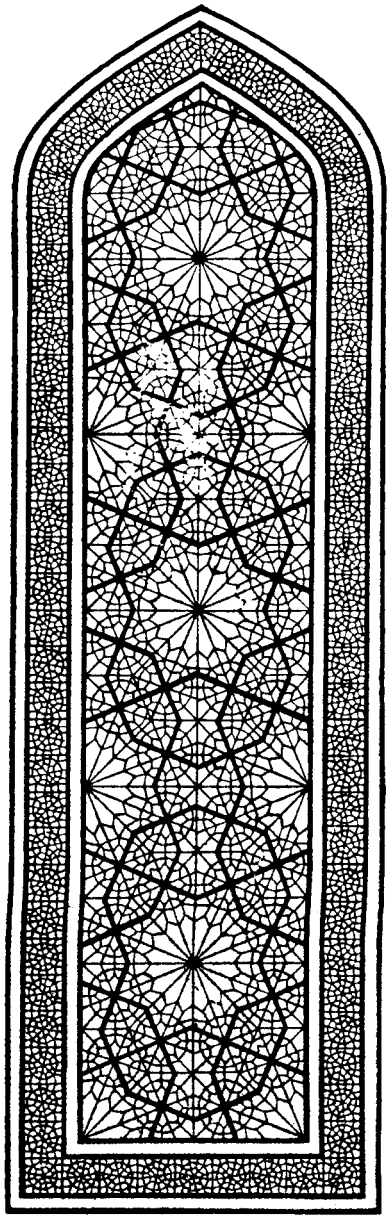

الفصل الرابع

الدعوة
دمة الله
مة المقدسة
في أصفهان

واخيراً عدت الى اصفهان . وبعد شهر من وصولي وكان ذلك في ١٨ تشرين الاول سنة ١٩٤٩ سامني اسقف ايران شماساً لكنيسة لوقا . وكانت هذه نفس الكنيسة التي تعمدّت وتثبتت فيها . واخذ هذا الاسقف يراقب نموي وتقدمي في الحياة الروحية ، وكان قد دأب على ذلك منذ ان كنت طالباً في الكلية باصفهان .

ولم تمض عشرة اشهر على رسامتي كشماس حتى رسمت قسيساً وتمت الرسامة في كنيسة القديس سمعان الغيور الجميلة ، وذلك في مدينة شيراز . وبدأت بعد ذلك خدمتي المقدسة في رعاية كنيسة القديس لوقا باصفهان . وبرزت قضية زواجي كأكبر مشكلة في حياتي . ذلك لان اعضاء كنيستنا في ايران كانوا قلائل . والعلاقات بين الفتيان والفتيات كانت موضوعة تحت المراقبة الشديدة . ولم يكن من السهل على الشاب او الشابة ان يجدا حدهما الشريك المناسب لحياته .

وقد شكلت نشأتي السابقة وتربيتي الاولى بعض الصعوبات امام زواجي . والشائع في بلاد فارس ان الزواج يتم عادة بمساومة بين عائلتي العريس والعروس . والذي يتزوج فتاة انما يتزوج

عائلتها ايضاً . وسألت نفسي مراراً : هل هي ارادة الله ان اظل اعزب طيلة حياتي ؟ ولم اجد حلاً افضل من ان اسلم اموري اليه وان اضع هذه المشكلة امامه .

والغريب انّ هذه القضية لم تعد مشكلة لي بل غدت فرصة سانحة امامي لتمجيد الله . وقلت : اما ان اتزوج الشخص المناسب او لا اتزوج بالمرة . واليكم مقتبسات من رسائل كنت قد ارسلتها لصديق لي في اصفهان ايام كنت مقيماً في انكلترا .

٢ حزيران سنة ١٩٤٨ — لا بد لي من ان اعترف بانه كانت لي بعض الصعوبات في الاشهر الاولى من وجودي في انكلترا . اذ تعذر علي ان اكيّف نفسي للظروف . وازعجتني فكرة الزواج كثيراً ، لانني كنت اضع مسالة الزواج اولاً ، والمسيح ثانياً ، لكن المسيح ساعدني كي اصحح هذا الفكر . وراودني فكر جديد وهو انه ربما اراد المسيح مني الا اتزوج بالمرة .. ولي فرص في انكلترا للتعرف على الفتيات اكثر مما في بلادي . ومن المصاعب التي تواجه الزواج المختلط ان احد الشركاء لا بد وان ينفصل عن اهله وعشيرته . وهذا بنظري هو اهم بكثير من اختلاف العرق والقومية بينهما .

٨ شباط عام ١٩٤٩ – لست اعتقد انني واقع في حب فتاة ما . وفي داخلي رغبة جامحة للحب ، ولكن رغم ذلك فانا هـادىء مطمئن . وفي قرارة هذه الرغبة انا متاكد بان الله يقودني في الطريق الذي يريدني ان اسير فيه . وكما صرحت قبلا فانا مستعد ان اظل اعزب حتى آخر حياتي ، ان كانت هذه ارادة الله لي . وهذه اعظم تضحية اقوم بها اذا اراد الله ذلك مني ...

لكن الله لم يشأ ان اقدم هذه التضحية ، ففي الوقت المناسب اختارلي فتاة ارتبطت واياها بالرباط المقدس . وكانت الفتاة المختارة لتكون شريكة لحياتي اهي الآنسة مرغريت – الابنة الصغرى لاسقفي . وهي مثل امها كانت قد ولدت في هذه البلاد وصرفت معظم ايام حياتها في ايران .

واقترنت بها عام ١٩٥٢ عندما كانت ازمة البترول مشتدة والحملة ضد بريطانيا قوية . وفي زواجنا برهنا انه في المسيح لا يوجد شرق ولا غرب ، ولا شمال او جنوب ، بل هناك شركة كبيرة واحدة رباطها المحبة في المسيح .

وانا الذي كنت اشعر بانني وحيد وجدت نفسي فجأة جزءاً من عائلة . ولم اكن لاحلم بذلك قبلا . ولست اشك بأن الله هو ،

الذي قادني الى ذلك . وها اني بعد ست سنوات من حياة زوجية سعيدة اعترف بأنّ الفضل في ذلك كان لربي . وقد رزقنا ثلاثة اولاد . ويقول بعض اصدقائي المقربين : ان اكبر عجيبة حصلت لي بعد اهتدائي هو امر زواجي . واني اردد مع صاحب المزامير قائلاً : **كثيراً ما جعلت ايها الرب الهي عجائبك وافكارك من جهتنا .**

وليست هذه هي نهاية القصة . فطفولتي اصبحت قسماً من الماضي . وسرعان ما هدأت اضطراباتي الفكرية والروحية . وأخذت اعمل ما رتبه الله لي . وها انا أخدم الكنيسة في بلادي كأحسن ما يمكن ان اخدمها . وهذا كان بدء مرحلة جهادي وشعرت كما شعر غيري من رجال الله ان واجبهم هو اعلان كلمة الخلاص لاهل بلادي . واود ان اقول كلمة لاولئك الذين يشكون في قيمة الكرازة بانجيل الخلاص لغير المسيحيين . فإنه من حق كل انسان ان يصغي الى ما هو حق. وواجبنا ان نقدم لهم حياة المسيح وصلبه بأحسن اسلوب ... وما تكون النتيجة ؟ فهذا ليس ضمن نطاق حكمنا او دائرة عملنا ...

وترد في تاريخ آدابنا مجموعة من قصص المحبة والتضحية فشعراؤنا

تغنوا بالمحبة ، وذكروا كيف ان المحبين الحقيقيين يضحون بكل غال ونفيس في سبيل المحبوب . ولماذا لا تشعل محبة الله ناراً في قلوبنا مثلما أُشعلت فيقلوب هؤلاء المحبين المتيمين ؟ ، واذا توارت روح المجازفة التي تعترض طريق الحب فلا شيء يتبقّى ، ونحن اذا اهملنا ذكر صليب المسيح عند القيام باعمال التبشير ، فلا شيء مما له قيمة يتبقى لدينا .

لقد غدت الحرية موضوع الساعة. ويفسّر الحرية ارباب الديانات المتنوعة في البلاد المختلفة تفسيراً يتلاءم مع تفكيرهم الخاص . وقد وقّعت بلادي وثيقة حقوق الانسان التي صدرت عن هيئة الامم . وبهذا تكون ايران قد منحت الحرية لابنائها . ويتمتع اهل ايران بحرية دينية ، فالفرد حرّ ان يتبع الامور التي يريدها. وهناك حرية في تفسير الدين للآخرين وبالطريقة التي تتضح لدى الوعاظ ورجال الدين ، وتبرق في مخيلاتهم . ولنحاول تفسير بعض المعتقدات اللاهوتية مبتدئين بمصدر كل الاشياء الذي هو الله .

الله

اذكر وانا صغير اننا كنا ذات يوم نتحدّث عن الله ، ونحن على

سطح دارنا في بلدة تافت . وكانت امامنا اطعمة موضوعة هناك لحفظها من الفساد . وقد غطيت بسلة كبيرة وواسعة . وقال اخي : الله نور – كلهنور – وهو كبير مثل هذه السلة التي امامنا .

وكنت قد تعرفت على بعض المصطلحات الفلسفية والتعابير اللاهوتية عن الله من والدي . فعرفت ان الله عظيم .. وانه ازلي .. وعرفت ان له بعض الصفات الايجابية كالحكمة ، والقوة والحياة كما ان له صفات سلبية كالغضب ، والانتقام . وان هذا الاله ليس مادة ولا شيئاً مركباً ، ولا يمكن رؤيته ، وان ليس له شريك . وعندما كنت ادرس في المدارس المسيحية اضفت الى معارفي عن الله فكرة الاب السماوي ومحبته الفائقة وصفته المضحية .

ولا بد لي من ان اعترف انه في بعض الساعات كانت تعصف بي موجات من الشك ، فأبدأ اسائل نفسي هل هناك حقيقة اله ؟ ولماذا هو خلق عالماً فيه كثير من النقائص ومظاهر القسوة ؟ ولماذا أوجد الزلازل والمجاعات التي تهلك الآلاف من مخلوقاته ؟.. ولماذا كانت مشيئته ان يتألم الناس ويقاسوا آلاماً جسدية مبرحة

فيموتوا في النهاية وهم محرومون من التمتع بامور حياتهم ؟ ولماذا كان بعض الناس يتعذبون بسبب خطايا البعض الآخر ؟ فما هو القصد من كل هذا يا ترى ؟ وقد قال احد الشعراء ما فحواه :

لسنا ندري من اين اتينا كما اننا لسنا نعلم اين سنذهب ؟
وان كان الكثيرون قد حاولوا استجلاء هـذا
الا نّ هذا السر ما برح مستغلقـاً على الجميع

اجل ان كان هناك اله فما هو السبيل لمعرفته؟ وهل مثل هذا الاله يعتني بعالمه ؟ وهل هناك خطة موحّدة ؟ وهـل لا يوجد غرض حقيقي لهذه الحياة ؟ فأسئلة مثل هذه ظلت تتجاوب في مخيلتي. وكنت اشتاق كغيري بأن نجد لها اجوبة مقنعة .

ومعرفتي بأن الله واحد ، وانه رحوم وغير متغير وغير مرئي ، لم تؤثر لا قليلا ولا كثيراً على حل مشكلاتي الاساسية وهـل تشفي هذه الامور من كان مريضاً في قلبه ؟ فقـد سئمت الكلام ورغبت في الحصول على لمسة شافية من لمسات المحبة الالهية .

وانا لا اؤمن باله يظهر ذاته فقط عن طريق مظـاهر الطبيعة او بواسطة الكتب والانبياء، او بفرض النواميس، والشرائع. اذ ماذا

نقول للطبيعة عندما تقسو ؟ او كيف نتبع الانبياء وخطيتهم تتبعهم ؟ . واتضح لي انه اذا كان لا بد من وجود الله فذاك الاله يجب ان يظهر ذاته بشكل شخصي ... وفعلا فإن فكرة التجسد التي تنبّر عليها المسيحية ، هي التي جعلتني أحب هذا الدين الجديد . ويقول الرسول بولس ان الله كان في المسيح مصالحاً العالم لنفسه (٢ كو – ١٩) .

وفكرة التجسد هذه التي يعتبرها البعض كفراً. هي التي انقذتني من الاستهداف لتيارات عدم الايمان . وسرعان ما اصبح هذا التجسد عندي شيئاً طبيعياً وعادياً . وهناك حكايات عن ملوك كانوا يتخفون ليتعرفوا الى حالة رعاياهم. ويروى عن الشاه عباس انه كان يتخفّى كدرويش او كرجل فقير ، فيتجوّل بين افراد رعيته ليطّلع على احوالهم ، وقد قام بذلك وهو ملك البلاد ، لكن هذا العمل لم ينقص من هيبته شيئاً ، او يقلّل من مهابته كملك .

واذا كنا نعجب بعمل يقوم به انسان فلماذا يا ترى لا نعجب بعمل كهذا يقوم به الله نفسه ، لا سيما عندما شاء أن يظهر لنا بشكل يرضي عقولنا ونفهمه فهماً تاماً . اذ لا يكفي ان نتصوّر

الله بمخيلاتنا كما يتصوّره الشعراء ، فعند ذاك لا يكون هذا الاله سوى صورة لافكارنا ونسيج لخيالنا ، ومعبوداً لعقولنا .

وعندما نقرأ في مستهـــل انجيل يوحنا : « في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله ... والكلمة صار جداً وحـــلّ بيننا ». فنحن لا نستطيع فهم ما ورد في هذه الآيات . لكن هنـــاك الكثير من الامور في الحياة التي لا نفهمها ولا نستحسنها . لكن اعتقادنا بسرّ التجسد يحـــلّ الكثير من المشكلات . فالعـــالم والخليقة كلها تخص الله .

ونحن نعرف ان الخطيئة دخلت العالم وان الشر يملأ دنيـــانا ، ونحن بالتالي معرضون للهلاك . لكن اذا كان الحب الالهي حباً صادقاً ، فعليه ان يسكب نفسه ليخلّص المحبوب — وهذا ما يقول به المسيحيون ويؤمنون به : ان الله احب العالم فـــارسل ابنه ليتجسد فيه .

ويقول الرسول : بولس الذي ان كان في صورة الله لم يحب خلسة ان يكون معادلاً لله . لكنه اخلى نفسه آخذا صورة عبد صائراً في شبه الناس . (فيلبي ٢ — ٦ و ٢) ولشد ما اكتشفت بأن ذلك الاله الذي يدخل عالم خليقته بشكل خادم يشفي امراضها

ويحمل احزانهـــا ، انما هو الاله الذي ينفعني والجدير بايماني وبعبادتي ..

فكرة الثالوث

وتشكّل فكره الثالوث صعوبة عند غير المسيحيين . وعندما كنت اشك بوجود الله فلا صعوبة عند ذاك لاي نوع من الله اؤمن به . وفي حالة شكي بوجود الله فسواء لدي ان كان واحداً او هو يتخذ اقانيم ثلاثة في شخص واحد . بيد انه عندما تثبّت ايماني بالله وجدت انني استطيع ان اتفهم اكثر فاكثر عن ذلك الاله ، لا سيما عندما عرض امامي بشخصيته المركّبة . وان مثل هذا لاسهل لفهمي ولادراكي من المفاهيم الفلسفية ، والمصطلحـــات اللاهوتية ، والقول بوحدانية حسابية غير واضحة .

وفهمت ان فكرة الاب والابن والروح القـــدس – اي فكرة الثالوث الاقدس عند المسيحيين لا تعني وجود ثلاثة آلهة منفصلة بعضهم عن بعض ، بل اله واحد في اقانيم ثلاثة . ولم يكن هذا مستهجناً او غريباً على مسامعي لاني طـالما سمعت بعض النعوت تعطى لعلي ابن عم النبي. فقد سمي: بيد الله – وأسد الله. ومنذ صغري عرفت بأن هذه الالقاب تحمل معاني روحية متباينة .

وتطرق احد شعراء اصفهان المسمى هايف في احدى قصائده الى ذكر الثالوث الاقدس . ففي تلك القصيدة الطويلة والمحبوبة التي جعلت موضوعها «وحدة الله» اشار الشاعر الى كنيسة المسيح . وجرت بينه وبين صديق مسيحي مباحثة في الثالوث . وعبّر الشاعر في آخر مقطع له بلغته الشعرية البديعة عن الله الواحد بقوله : ان اجراس الكنيسة المتناغمة باصواتها انما تعلن عن اله واحد .

ولم يكن قصد الشاعر هايف ان يفسّر عقيدة الثالوث بل ان محاولته في تلك القصيدة كانت تستهدف الإرتفاع بهذه العقيدة الى صعيد روحاني متسام . وكان توضيحه لفكرة الثالوث معوانا لي وللكثيرين امثالي .

ويعطى الله في الدين الاسلامي اسماء عديدة وتعرف هذه «باسماء الله الحسنى . ويحاول كل اسم من هذه الاسماء ان يوضح ناحية من صفات الله . وهذا يشبه ما تقول به المسحية ، عندما تدعو الله الاب ، والله الابن ، والله الروح القدس . فهذه اسماء متنوعة للاله الواحد . ويكشف كل اقنوم من هذه الاقانيم الثلاثة عن ناحية خاصة من خواص الشخصية الالهية التي تتجسم في شخص اله عظيم واحد .

وامامنا قطعة من الخشب قد تكون قطعة واحدة ، لكن في الوسع تجزئتها الى قطع عديدة ، عندما نجمعها تظل تشكل قطعة من الخشب . وهذا نوع من انواع الوحدة . لكن في سلم الحياة الاعلى وحيث توجد الحياة ، فان الوحدة تصبح اشد تعقيداً . فاذا ما شطرت نملة شطرين ، فنحن لا نعود نحصل عند ذاك على النملة الواحدة ...

وظن البعض ان للمسلمين الهاً ، وللمسيحيين الهاً آخر . وقد يكون لكل من الديانتين نظرة مغايرة في تفهم الله ، الا انني لا اوافق الذين يقولون بأن المسلمين والمسيحيين يعبدون الهين مختلفين . فما حدث لي وما اختبرته بنفسي هو : ان ايماني باله المسيحيين ارتبط بالاله الذي عرفته عند صغري من اهلي المسلمين . وعندما طالعت المزامير وقرأت سفر ايوب عرفت هذا الاله معرفة جديدة ، وعند مطالعتي للاناجيل بدات عبده عند قاعدة الصليب . ولا مفرّ من الاعتراف بأن اساس معرفتي عن الله كان ما حاوله اخي ان يوضحه لي عندما شبهه « بسلة النور » او عندما حاول والدي توضيحه لي عن طريق المصطلحات الفلسفية .

وعندما بدأت اضع ثقتي بالله واتكل عليه اتكالا تاماً ، اختبرت

المفاهيم المتباينة عنه كما تجلت لي في الديانتين . فلقد ادركت بأن الهاً احدده بالمعرفة الانسانية وبالمنطق وبالعقل لم يكن كافياً . وطوافي الروحي بالايمان لمعرفة اله المسيحيين لم يتجدد بالمرة عن الفكرة التي كانت لي قبلا عن الله .. ولكن المسيحية حملتني الى ما وراء العقل الانساني ، والى ما يعجز المنطق عن تحديده ، بحيث دفعتني الى حدود ملكوت مجد الله لاعرف ربي معرفة صادقة وشخصية .

وتعلمت بالاّ احكم على الله بموجب مبادىء انسانية بل ان اضع ثقتي به كما يضع الطفل ثقته بأمه . وحالما وضعت ثقتي به بهذه الطريقة فإن الحياة لم تعد في نظري حوادث مبعثرة لا رابط بينها ، او عقائد متناثرة وغير موحّدة ، فإنه على ضوء هذه الثقة غدت القطع المتناثرة من الحياة تأخذ مكانتها في مخطط حياتي الكبير . وقد تمّ لي هذا عند ما وجدت مفتاح العلاقات التي تربطني بإله شخصي — وذلك عن طريق يسوع المسيح .

الخطيئة والتوبة والغفران

يعتقد المسلم ان اعمال الانسان هي التي تقرر مصيره فالاعمال الصالحة يجعلها الله لحسابه ، اما الاعمال الرديئة فتعتبر ديناً عليه.

ولدى تصفية الرصيد يتقرر مصير الانسان بعد الحياة ، فإما ان يكون مصيره للجنة او للجحيم...

وتشمل الاعمال الصالحة الصلاة والصوم والزكاة وإتمام الفرائض الدينية ، في حين ان الاعمال الرديئة تعني مخالفة الشرائع الالهية. وهكذا تتخذ الطبيعة الانسانية موقفاً محـــايداً . فهي ليست صالحة او شريرة ، لانه اذا اضاف المرء ، اعمالا صالحة لحيـــاته يزداد صلاحاً . وبالعكس اذا ازدادت اخطاؤه زادت خطيته.

بيد ان هذه النظره لم توافق افكاري ، ولم تتمش مع اختباراتي، لان الاعمال الفردية والخارجية لم تكن لتجعلني صالحاً او خاطئاً وقد وجدت نفسي رديئاً لدرجة لم استطع عمـل شيء صالح من ذاتي لاصلاح نفسي . وكانت أُحسن مقـــاصدي ملوثة بالانانية ومتسمة بحب الذات .

وقد اكتشفت ان النظرة المسيحية للخطية هي اقرب الى اختبارات الحياة واصدق للطبعة الانسانية ، ذلك لان الخطيئة في المسيحية لا تعتمد على اعمال خاصة ، بل هي طبيعة الانسان التي تعمل على توليد تلك الاعمال . فالخطية ليست مجرد كسر شريعة الله ،

بل محاولة من الانسان ان يضع نفسه محل الله . فالخطية في نظر المسيحية ليست غباراً يلتصق بالملابس فننفضه عنا بسهولة ، بل هو قذارة تشبّعت بها النفس بحيث تسربت الى اغوارها ولوثتها، فلم يعد من السهولة غسلها . فالخطية ليست من الخارج بل هي من الداخل . ونحن كبشر مستهدفون للخطيئة . وهـذا ما يجعل الانسان غير قادر على خلاص نفسه . ولا يستطيع المرء من تلقاء ذاته ان يحصل على الخلاص حتى لو قدّر له ان يتمم جميع الفرائض الدينية. والنتيجة التي تشعر بها النفس هي انها ما زالت بعيدة عن الله . ومثل هذه العلاقة بين الله والانسان التي فيها يكون الانسان الرابح والله المدين، هي علاقة غير معقولة وما برح الله يحب الانسان رغم خطيته ، انما كبرياؤه هي التي تحول دون وصول اشعة الله اليه.

كيف نتخلص من حالة مريعة كهذه ؟

ليس من سبيل امامنا سوى التوبة . وفكرة التوبة مرتبطة بفكرة الخطيئة . والمفروض منا ان نتوب عن خطايانا وهذا يعني ان ناسف على الاعمال التي كان واجباً علينا عملها ولم نعملها، وكذلك ان نندم على الاعمال التي عملناها وكان علينا الا نعملها.

وتتخذ التوبة في المسيحية معنى اعمق اذ هي تعني تغيير تام في الحياة ، وفتح باب القلب لذاك المخلص الواقف على الباب ويقرع طالباً الدخول الى القلب . وهذا يعني اماتة النفس والولادة من جديد ، ليغدو الانسان خليقة جديدة .

ومن اسماء الله – الرحوم والغفور ، انما نظام الغفران هنا غير واضح . ويظهر ان الله يغفر لاولئك الذين يريد ان يغفر لهم ، وهو لا يغفر لمن لا يريد لهم الغفران. وفي وسع الانبياءوالقديسين ان يتوسطوا للخاطىء ، وان الاعمال الصالحة تضمن لمثل هؤلاء الخلاص .

لكن النظرة المسيحية تقول انه لا علاقة للاعمال الصالحة بعملية الخلاص ، لان الغفران هو عطية من الله . فهو يغفر لنا من فرط محبته للانسان. وما على الانسان الا ان يثق بالله. ويقول الكتاب لنتبرر بايمان يسوع لا باعمال الناموس لانه باعمال الناموس لا يتبرر جسد ما (غلاطيه ٢ – ١٦)

مشكلة الالم وصليب المسيح

تتمركز المسيحية في الصليب ، فهو المفتاح الذي عن طريقه نحن

نكشف اسرار الله ، ونتفهم حقيقة التجسد والخطيئة والغفران ومعنى الخلاص . فالصليب اعظم الاسرار ، وان اعتبره اليهود عثرة لهم وللامم جهالة ...

وكانت اعظم صعوبة في طريق حياتي الدينية وايماني بالله مشكلة الالم. وانارت فكرة التجسد بنوع خاص حبي لله. وقد تبيّن لي بأن هذا هو الشيء الطبيعي الذي نتوقعه من الله ، ان ينزل هو بنفسه ويشاركنا الآلام. فبعمله هذا انما هو يتصرّف كما يتصرّف الراعي الذي يبذل حياته من اجل الخراف .

وقد قال المسيح عن نفسه « انه هو الراعي الصالح ». من اجل ذلك لا يمكن لنا ان نتوقع منه ان يعمل اقل من هذا. وقد برهن المسيح على عظم محبته للعالم بموته على صليب الجلجلة .

وقد يتعذر على غير المسيحي بأن يؤمن بان الله يمنح لاناس خطاة بأن يقتلوا ابنه . فالمنتظر منه ان يظهر قدرته وينتصر عليهم ، وهذا ما جعل الفكرة تشيع عند غير المسيحيين بأن الله أوجد شخصاً ليصلب مكان المسيح لينقذه من الموت . بيد اننا عندما نؤمن بالتجسد بانه السبيل الوحيد لاظهار محبة الله ، فلا بد لنا عند ذاك من ان نتوقع نتيجة مثل هذه تؤدي الى الصلب . وإذا

ما التقت المحبة مع الخطيئة فالنتيجة المتوقعة هي الالم . وعندما يتألم المحب يتأتى الشقاء الحقيقي . وبهذا نجد ان مشكلة الالم ترتفع الى صعيد روحي متسام .

وعلى ضوء هذا لا يعود الالم امراً نتذمر منه بل يصبح امـــراً نستطيع قبوله وتحمله بتواضع. وعن طريق الالم نفسح المجال لتوليد نشاط روحي للعالم . وهذا العمل الشاق الذي نحـــاول انجازه لا يظهر صعباً ، وغير سار اذا ما رأينا سيدنا يساندنا فيه ويقف بجانبنـــا ، ويشاركنا صعوباته. وعند ذاك نكف عن التذمر ونرى في الالم نعمة ، وفي الصعوبة مسرة. وعلى ضوء هذه النظرية حلّت مشكلة الألم عندي .

وهكذا اصبح في مقدور الالم ان يستعمل كوسيلة فيها يتسنى لمجد الله ان يشرق بنورٍ نقي ، فيغمر ذرات الغبار المتطايرة التي ترى على ضوء الاشعـــة المنعكسة على كوى السقوف التي تغطي الاسواق في مدن ايران ...

وانني وجدت عند قاعدة الصليب نشاطاً جديداً ، ولمست الغرض من الحياة . وشعرت مثلما شعرت احدى شخصيـــات رواية «العروس» للكاتبة مرغريت اروين عندما سئلت : لماذا اصبحت

راهبة ؟ .

ـ اجابت قبلت النذور بسبب الله الذي سمح لابنه ان ينزل الى عالم الانسان . وقد اثر هذا عليّ كثيراً. ولم يثر حزني وشفقتي، بل دفعني الى التسامي بعواطفي ، والاعلاء بافكاري. وهل شيء، اعظم وامجد من هذا ان يكون لله كل شيء، لكنه في ذاته يستعد ان يعطي كل شيء ؟ .

وتعذّر عليّ في البدء ان افهم كيف ان الله العظيم نزل الى العالم وسمح للناس ان يصلبوا ابنه . انما في اعماق نفسي شعرت بشيء لم اكن لافهمه . ولم استطع ان افهم كيف جعل خطته للعالم بايجاده الغفران لهم على الصليب، ولكن عند ما اتطلّع الى ابن الله على الصليب واتلمس حبه ومقصده ، فلا مفرّ لي من ان اخرّ ساجداً ومردداً تلك الكلمات « ارحمني يا سيد انا الخاطىء » ، وعلى الاثر اسمع الصوت الالهي يدوي قائلا : تعالوا اليّ يا جميع المتعبين والثقيلي الاحمال وانا اريحكم ..

ولسوء الحظ فإن الطريق الحقيقي للصليب ما برح مخفياً عن اخواننا من اتباع الديانات الاخرى . وعلينا ان نعترف كمسيحيين اننا قصّرنا في اظهار روح المصلوب ، وتقاعسنا عن اعلان طرقه

وما اكثر الاوقات التي عمد فيها المسيحيون للالتجاء الى القوة ، ولاستعمال السيف في اعلان هذه الحقيقة ، وفي هذا نحن نخالف طرق سيدنا ونعاكس رسالة الصليب .

واني لارى ثلاث طرق فيها نستطيع كسب الناس لجهتنا وهي :

اولا : اعطاؤهم ما يحتاجون اليه من طعام ولباس ومسرات .

ثانياً : استهواؤهم عن طريق الدعايات والاكاذيب ، مما يجعلهم ان يسحروا بالكلام المعسول فيسلموا ارادتهم له .

ثالثاً : اجبارهم قبول العقيدة عن طريق القوه .

اما المسيح فقد رفض الالتجاء الى هذه الطرق ، لانهـــا طرق عالمية . وقد رفض اغراء ابليس ، وانتصر على تجاربه . ولكنه تطلع الى طريقة جديدة . ولم يكن امامه ثمة طـــريق يفضل طريق المحبة . وطريق المحبة الكاملة هي درب الصليب .

حاول تلاميذ المسيح مرة ان يدخلوا احدى القرى عن طريق القوة . ولكنه لم يسمح لهم بذلك وقال : ان ابن الانسان لم يات ليهلك انفس الناس بل ليخلّص . وتوقع الناس ان يلجا

المسيح الى القوة ، لكنه لم يعمل ذلك. فهو كما قال عنه اشعياء: مجروح لاجل معاصينا مسحوق لاجل آثامنا تاديب سلامنا عليه وبحبره شفينا (اشعياء ٥٣ — ٥) .

وهناك قول عربي شائع «تعرف الملوك من فتوحاتهم» . والطريقة التي جعلت المسيح ان يصرخ وهو على الصليب « قد اكمل » هي صرخة الانتصار وقد اعلن هذا الانتصار عن طريق قيامته . ويظهر نوع هذا الانتصار الذي حققه ملك المحبة بانتصاره على الخطيئة . ويظهر ايضاً هذا النصر عمق طبيعة الانسان الاثيمة، ليس للذين اشتركوا في عملية الصلب ، بل ايضاً لكل فرد منا .

والخطيئة هي قسم من حياة البشر . وقد تجلّت في بعض الصفات التي ظهرت عند بعض الرسل ، او في خيانة يهوذا الاسخريوطي ، او في طرق قيافا الملتوية التي استعملت لتنفيذ خططه ، او في محبة بيلاطس لمركزه ووظيفته . ويبدو الصليب امام هذه الخطايا والضعفات ، مثل جهاز اشعة اكس الذي عن طريقه نستطيع ان نرى بجلاء ما هو في داخلنا . فنحلّل ذواتنا تحليلا دقيقاً ، وبهذا نصبح متواضعين حقاً .

وان رسالة المسيحية التي تقول بان الله في وسط آلام العالم هي

الجواب الوحيد لهـــذه المشكلة السرية عن الخطية . ويعتقد المسيحيون بان الخليقة كلها ناقصة وبان الله دأب على اصلاحهـــا وإعادة بنائها . ونحن لسنا سوى شركاء له في هذا العمل البنّاء، اذا ما تعاونا معه ، وتالمنا كما تالم من اجلنا . ويقول الرسول بولس: « الروح نفسه ايضاً يشهد لارواحنا اننا اولاد الله. فإذا كنا اولاداً فاننا وارثون مع المسيح ان كنا نتالم معه لكي نتمجد معه » . (رومية ٨ — ١٦ و ١٧)

قواعد السلوك

كثيراً ما يسالنا اخواننا من غير المسيحيين هذا السؤال فيقولون: ان كنتم مخلصين بالنعمة ولم تكن لاعمالكم مكانة في عمليـــة الخلاص ، واذ لم تكن لكم دساتير للسلوك تسيرون بموجبهـا في حياتكم . فما هي يا ترى قواعد السلوك الموجودة في دينكم ؟.

لشدّ ما نجد في الاديان الاخرى تفصيلات دقيقة موضوعة لتكون دستوراً للحياة الفردية • سواء اكانت هذه في المجالات السياسية ام الاجتماعية ام الاقتصادية . والمسيحية كما لا يخفى تهتم بالمجتمع وبمصلحة شعوبه . الا انها تعنى عناية كبرى بالافراد . وكلما ازداد عدد المولودين ولادة جديدة في اي مجتمع ، كلما كان ذلك

المجتمع مجتمعاً قريباً من الله. وابناء الكنيسة الحقيقيون والمؤمنون هم حسب تصريح المسيح ملح العالم. وهؤلاء هم الذين يلعبون دور الملح في حفظ العالم من الفساد.

ولا يخفى ان للشعوب برلماناتها ومجامعها ومنظماتها المتنوعة. وهناك انظمة وقوانين وضعت حسب حاجات الظروف ومتطلبات الازمان. انما الطريقة التي فيها يتسنى للمسيحيين ان يدخلوا المجتمع ويتركوا اثراً فيه هو في الدخول الى صميمه والعيش بين ابنائه وفي اجوائه. وكلما ازداد عدد المسيحيين المؤمنين الذين يدخلون برلمانات بلادهم كلما كانت قوانين البلاد أقرب لان تكون مسيحية.

والسؤال : ماذا يتحكم في حياة الافراد ؟

ان غير المسيحي يقول : بعض الانظمة والقوانين ، والفرائض.. انا اعرف مواعيد الصلاة ... واعرف الكلمات التي سأستعملها عند الصلاة ... وقد قيل لي ما هو نظيف وما هو نجس ، وما هو محلّل او محرّم ... اما المسيحيون فليس لهم دليل يحدّد كل هذه الامور.

والجواب: ان المسيحيين ليسوا تحت الناموس بل تحت النعمة. وقد قال الرسول بولس: الذي جعلنا كفاة لان نكون خدام عهد جديد (٢ كو ٣ – ٦) والاولاد الصغار او الخدام هم الذين يحتاجون الى انظمة وقوانين. اما نحن فقد دعانا المسيح «اصدقاء» وكأصدقاء فلنتبع ما وضعه المسيح لنا من قواعد للسلوك.

وفي المسيحية مبدآن وضعها المسيح لنا. فقد قال: تحب الرب الهك من كل قلبك، ومن كل نفسك ومن كل فكرك، هذه هي الوصية الاولى والعظمى. والثانية مثلها تحب قريبك كنفسك، بهاتين الوصيتين يتعلق الناموس كله والانبياء (متى ٢٢ – ٣٧ – ٣٨).

اجل ان مقياس سلوك المسيحي هو المسيح نفسه. وعلينا ان نقلّده في كل شيء. ولا يعني هذا ان تقليدنا له وجب ان يكون سطحياً، بل يترتب علينا ان نكتشف فكره وطرقه دائماً. وقد لا نستطيع القيام بهذا لوحدنا، انما نحن نتطلّع الى الروح القدس ليعيننا. اما المعزي «الروح القدس الذي سيرسل الاب باسمي فهو يعلمكم كل شيء ويذكركم بكل ما قلته لكم.

(يوحنا ١٤ – ٢٦ .)

وعلى اتباع الاديان الاخرى غـــير المسيحية ان يقوموا ببعض الفروض ، وان يتلوا الصلوات، وان يقرأوا كتابهم المقدس وان يذكروا اسم الله في كل المناسبات، اذا ما راموا ان يظهروا متدينين. انما عند المسيحيين فالروح القدس هو الذي يعمـل في جمعنا، والصلاح في المسيحية هو ثمـر الروح العامل فينا. ويقول الرسول بولس: « اما ثمر الروح فهو محبة فرح ســـلام طول اناة لطف صلاح ايمان ». (غلاطية ٥ – ٢٢) .

وغرض الحياة الكامل للمسيحي هي عمل ارادة الله . وهذه هي ارادة الله قداستكم . ولسنا نستطيع اكتساب القداسة وحـدنا بل الروح هو الذي يكسبنا تلك القداسة . ويقول الانجيـــل « اثبتوا فيّ وانا فيكم ... الذي يثبت فيّ وانا فيه هذا يأتي بثمر كثير . لانكم بدوني لا تقدرون ان تفعلوا شيئاً . (يوحنـــا ١٥ – ٤) .

ومعنى « اسلام » هو التسليم لله. وهذه الكلمة تحمل معنى جميلاً. والمسيحية تتطلب التسليم الكامـل لله . وعلى المسيحيين ان

يكتشفوا ارادة الله من جديد عن طريق الروح القدس . وفي الوسع كتابة بعض التفسيرات الجديدة عن كلمة الله ، لكن اكتشافات جديدة لا تتأتى الا عن طريق الروح القدس .

والمثال الاعلى لنا في الحياة هو المسيح . فهو الذي يكشف لنا ما هو ضروري للمعرفة عن الله . والمسيح في نظر المسيحيين هو الله الذي صنع فداء لشعبه . وما الانبياء الآخرون سوى اصوات ، وممهدي الطريق لمجيء ابن الله . فالمسيح هو صاحب السلطان .. وهو القيامة والحياة .

ومحبتنا بعضنا لبعض وجب ان تشبه محبته لنا . ليس لاحد حب اعظم من هذا ان يضع احد نفسه لاجل احبائه » (يوحنا ١٥ — ١٢) وهذه المحبة قد أُعطيت لنا مجاناً . وان مسؤولية استعمال الاشياء انما تقع علينا . والنقاوة او النجاسة التي نحصل عليها انما تتوقف على احكام قلوبنا . وعلينا كمسيحيين ان نخدم كما خدم سيدنا ، وان نصل الى درجة يمكننا السير فيها جنباً الى جنب معه .

اجل علينا ان نواكبه الى تلة الجلجثة حيث سمّرت يداه وهناك نسمعه وهو على الصليب يقول : يا ابتاه اغفر لهم لانهم لا يعلمون

ماذا يفعلون . وانني اعترف جهاراً بأنني لم ار مثـــالاً للخدمة والتضحية والمحبة المجردة مثلما وجدت في المسيح .

الاسفـــار المقدسة

ربما استغرب غير المسيحي عندما يشاهد الاسفـار التي تشكل الكتاب المقدس عند المسيحيين. فيراها مكتبة صغيرة في مجلد واحد . فهي كتباً كتبها اشخاص مختلفون وفي أربعة اناجيـل عوضاً عن انجيل واحد. ثم هم يستغربون كيف توضع الرسائل التي كتبت للكنائس في صلب الكتاب المقدس .

ويندهش المسلم بصورة خاصة امام هذا الوضع . لانه يعرف أن القرآن هو كلمة الله الازلية. وان الكتاب قد وجد منذ الازل. وما عمله النبي الكريم هو ان نقل ما هو مكتوب في اللوح المحفوظ في السماء لابناء هذا العالم .

ويعتبر الكتاب المقدس عند المسيحيين سجلاً لظهور الله للانسان، ووقائع استجابة الناس لذلك الظهور الالهي. فهي وقائع سجلها اشخاص متنوعون عملوا بمثابة امناء للسرّ في تدوين ما حدث من جراء التقاء الله بالبشر . ولا شك في ان انطباعات كل كاتب او

امين سرّ تختلف عن الآخر، ولكن رغم هذا الاختلاف في الانطباعات المدونة ما برحت وقائع حقيقية .

وليس الانجيل كتاباً بل هو اخبار سارة ـ انه المسيح بذاته . وقد حاول اربعة فنانين ان يضعوا تأثيراتهم في الاناجيل الاربعة عن شخص واحد. ولم يجلب المسيح معه كتاباً من السماء ولا هو كتب شيئاً عندما كان على الارض . ولم تكن ثمة حاجة عند ذاك الى كل ذلك ، لانه اذا وُجد الاحباء على مقربة من بعضهم البعض ، فهل هم بحاجة الى تبادل رسائل غرامية ؟ .

وكتب الاناجيل الاربعة رجال مختارون حاولوا ان يدونوا لنا نتيجة الاحداث الناجمة عن التقاء « الله الانسان » مع بني البشر. وما الرسائل سوى تفسير لما حدث، ولما يمكن ان يحدث عند ما تضع جماعات من الناس ذاتها تحت تصرف هذه الشخصية الانسانية والالهية الفريدة .

وربما وجدنا مصطلحات وتعابير عديدة يتعذر علينا فهمها عند ما نقرأ الكتاب المقدس. لكن علينا ان نعرف ان هذا ما نواجهه عندما نحاول قراءة اي كتاب آخر ذا قيمة ووزن . ولتفهّم الكتاب علينا ان نستعين بكتب التفسير او باشخاص

متفهمين له . وهذا الكتـــاب لم يتغيّر في جوهره رغم مرور الازمان عليه . وتدعم الدراسات العلمية والنقدية والمكتشفـات الحديثة للمخطوطات القديمة الفكرة بأن الاناجيل لم تتغيّر .

وما زال الكتاب المقدس اكثر الكتب رواجاً . وقد ترجم الى لغات تفوق ترجمة اي كتاب آخر في العالم . وهو ما برح يعطي نوراً وحيـــاة للملايين من الناس من كل الشعوب والاجنـــاس والعروق .

ويقول صاحب المزامير : **اما انت يا رب فـــالى الدهر جالس وذكرك الى دور فدور ... ويكتب هذا الدور الاخير .**
وعلينا ان نتذكر بأن الكلمات وحدها لا تستطيع ان تربح غير المسيحيين للمسيح . فهما فسّرنا ووعظنا فالاقوال تظل خيالية والذي يجلب الآخرين الى قدمي المصلوب وقـاعدة الصليب هي الحيـاة المسيحية الحقيقية . وانا بدوري اعترف انني تأثرت من حياة بعض الاصدقاء المسيحيين كثيراً — لا سيما من اولئك الذين اظهروا لي محبة فائقة وتضحية بالغة . وهكذا فلا يمكن ربـح الآخرين للمسيح الا اذا احببناهم حباً شخصياً صادقاً .

ومما لا ريب فيه ان قلب المسيحية هو صليب المسيح . لكن

هذا الصليب كثيراً ما يغمر بغيوم من الكراهية والشك والكبرياء وقساوة القلب التي تسود بين الناس . ولتبديد هـذه الغيوم ولنشر رسالة الصليب يتطلّب منا اموراً اكثر من الكرازة والتعليم والاقوال . فقد يستدعي ذلك منا حمل الصليب في الحياة اليومية ، ومعنى هذا انه يترتب علينا ان نحب حتى اذا ظهر الحب عسيرا ، وان نعمل رغم ان النتائج غير مضمونة .

وليس هذا العمل عملا افرادياً فحسب وذلك لان الفرد مهما كان قديساً لا يستطيع ان يظهر محبة المسيح اظهاراً تاماً . ولترجمة هذه المحبة وتجسيدها في الحياة فلا بد من تضامن جماعة المؤمنين وأهل بيت الله . وهذا هو عمل الكنيسة . وحيثما اجتمع اثنان او ثلاثة باسم المسيح استطاع هؤلاء حمل رسالته. فهذا هو سرّ الامر وجوهره . وهـذا هو الدور العظيم الذي يستطيع المسيحيون ان يعملوه في عالمنا الحاضر ...

تصميم وطبع - ايليا زكا (آبكو) تلفون ٢٥٦١٠٨ - بيروت

Zu beziehen durch: Orientdienst, 62 Wiesbaden, Walkmühlstraße 8
Offsetdruck: Breklumer Druckerei Manfred Siegel